+

بسم الآب والابن والروح القدس الإله الواحد
له المجد دائماً

نبتدئ بعون الله تعالى وحُسن توفيقه بنسخ كتاب القديس فى العارفين مار اسحق . وهو أربعة أجزاء . الرب يعين على الحلم والعمل به كل قارئ ومشتاق إلى سيرة الرهبنة بشفاعة ستنا السيدة مرتمريم وصلاة هذا القديس العظيم آمين .

خبر عن هذا القديس العظيم مار اسحق :

كان مولده فى بلاد الشرق من جنس السريان . وكان له أخ جسدانى وقد ترهب هو وإياه فى دير القديس مارمتى فى المجمع الكبير . ولكثرة علمهما ونجاحهما أختير أخوه لرئاسة الدير وتدبير الرهبان . أما القديس مار إسحق فبعد أن أكمل قوانين المجمع انفرد فى قلاية بعيدة عن الدير بضعة أميال ، ولزم الصمت والوحدة والانقطاع من كل أحد بالكلية . وكان أخوه كل وقت يراسله أن يحضر إليه فى المجمع ، فما كان يجيبه إلى ذلك . وبعد أن اشتهر علمه وقداسته أختير لأسقفية المدينة العظمى نينوى . وفى أول يوم من جلوسه فى قلاية الأسقفية حضر إليه اثنان يتحاكمان عنده ، فادّعى أحدهما على الآخر أن له عنده

مالاً وهو يريد أن يوفيه ماله . فأقرّ الآخر بذلك وسأله أن يمهله قليلاً ليتسبب ويوفيه . فأبى ذلك الغنى الشقى ، وقال : أريد أن يعطينى مالى وإلاّ أسلمته للحاكم . فأجاب القديس مارإسحق وقال : « إن الإنجيل المقدس يأمر بأن الذى يأخذ مالك لا تطالبه ، فلا أقل من أن تصبر عليه » . فأجاب ذلك الشقى وقال : « دع عنك كلام الإنجيل » ، فقال مارإسحق : « إذا كانوا لا يستمعون لكلام الإنجيل فماذا أتيت لأعمل ؟ » .

وعندما رأى القديس أن تدبير الأسقفية يفسد عليه عمل الوحدة ترك الأسقفية ورفض كل شئ وهرب إلى برية الإسقيط المقدسة وأكمل جميع أيام حياته فيها . وقد بلغ إلى أعلى ما يكون من القداسة ، وكان معلماً ومرشداً لجميع طائفة الرهبان وميناء خلاص لكل أحد . ووضع هذه الكتب الأربعة غاية فى الروحانية فى تعليم الرهبنة ، بركة صلاته تحفظنا آمين .

وكان هذا القديس فى أول الألف السابع من سنى العالم .

+ + +
+ +
+

الميمر الأول

فى الإفراز الطبيعى :

(١) الصورة الآدمية (أى الجوهر الإنسانى) فيها حركات وإفرازات ومشيئات وأنواع مختلفة من أعضاء وأفكار وترتيب الجسد والنفس والحواس .

(٢) الجسد فيه العين والأذن والفم واليدان . والإنسان الجوانى فيه حواس وأفكار كالأعضاء فى الجسد . وفيه ضمير وفكر وتمييز وفهم وعقل وذهن ، وفيه أيضاً إرادة وحرية . وكل هذه أعمالها معروفة ، وكلّ يتسلم من الآخر ، وجميعها تشارك فى عمل واحد .

(٣) أول جميعها هو الضمير ، والثانى هو الفكر ، ثم التمييز والفهم والعقل والذهن . عمل الضمير هو أن يضمر بما يكون . عمل الفكر هو إن كان ينبغى أن يكون الشئ أم لا . عمل التمييز أن الذى يُعمل لا يفسد ، عمل الفهم أن يكون العمل حسناً . عمل الإرادة أن توافق على العمل (أو لا توافق) . وهذه كلها قواتها معروفة وأفعالها مفروزة .

(٤) قد يضمر الإنسان ولا يفكر، وهناك من يفكر ولا يفهم. كذلك هناك من يريد ولا يميز، وآخر يميز ولا يريد. وهناك من ينظر الشئ أنه حسن وما يريد أن يقتنيه. كذلك هناك مَن فيه حكمة وليس معه تمييز. أو مَن هو فهيم وماله تدبير. وقد يوجد من يضمر ولا يفكر، أو يفكر ولا يريد.

(٥) فعل الإفراز هو أن يميز الجيد من الردئ، ويفاضل بين الشئ والشئ. فعل الحرية موضوع بين الحياة والموت، وبين البر والإثم.

(٦) الإنسان ما دام هو جسدانياً أو نفسانياً، فهو مفتقر إلى الحواس، فإذا بلغ إلى الروحانية بَطل احتياجه إليها، لأنه حيث يكون روح الرب توجد الحرية.

(٧) إذا أراد الضمير أن يبنى بيتاً فهذا هو فعل الضمير. ومنه (يسأل) الفكر إن كان ينبغى أن يكون ذلك أم لا. والإرادة هى التى تجزم وتقطع فى الأمر. أما ماذا يكون وكيف فهذا يُدعى معرفة، وفى أى وقت يُعمل هذه سياسة. أما التمييز فهو الذى يعطى مقدار الشئ كيف يكون، والفهم هو الذى يهتم ألا يصير فيه عيب.

(٨) فكر الله فى خلائقه لا يبدأ ولا ينتهى. الملائكة

والنفوس والشياطين بدأوا وما ينتهون. (أجساد) الناس والعالم المحسوس بدأوا وينتهون. الله المسجود له لا بدء له ولا نهاية. هذه الأربعة تُعرف بالمبدأ والمنتهى.

(٩) جعل الله الغضبية في الطبع لتكون إناءً للخيرة (الصالحة) لا لكي نصنع بها السخط ونؤذي (الآخرين) وننتقم لأنفسنا، بل لكي نقيم بها الحق. ووضع لنا الفم لكي نبارك ونسبح، لا لكي نلعن ونجدف. ووضع فينا العين لكي ننظر الأشياء ونشكر الخالق وليس لكي نشتهي رديًا.

(١٠) إن قال أحد: لماذا لم يجعل الله كل إنسان حكيمًا؟ فليميّز أنه ما ينبغي أن تكون الأرض كلها ينابيع.

لأجل أنه عار على الراهب أن يكتفي بفضائل العلمانيين:

(١١) عار عظيم للمتوحد الذي يُعِد بكمال السيرة ثم يكتفي بفضائل العلمانيين. ولومٌ عظيم ومحقرة في حقه أن يوجد تدبيره مساويًا لتدبير من هو خائف من الله وبار ومهتم بعمل البرّ وهو علماني متزوج. لأنه إن لم يكن الراهب مرتفعًا عن جميع الجسديات، ويشخص

كل وقت فى الله بالتدبير فى السكون ، لا يُعرف أنه أفضل من العلمانى البار ، لأن العلمانيين الفضلاء يعملون الفضائل الظاهرة بأجسادهم وبالصدقة ، لكنهم لا يحسون بالتدبير الخفى الكامل الذى للمتوحدين .

(١٢) ينبغى للراهب أن يعرف أنه كما أن النفس بطبيعتها أفضل من الجسد ، كذلك فالتدبير الخفى بالسكون هو أفضل من تدبير العلمانيين الظاهر ، وكما أن تدبير الملائكة أفضل من عمل الناس ، كذلك تدبير العقل بالسكون هو أفضل من تدبير الرهبان بالمجمع ومن فضائلهم التى تشبه فضائل العلمانيين الأبرار .

(١٣) وكما أن حُب الله أرفع وأشرف من حُب الناس ، كذلك عمل المتوحدين هو أفضل من عمل العلمانيين الصديقين . لأن العلمانيين بمحبة الناس يُرضون الله ، أما الزُهّاد فما يشتهون شيئاً مما فى السماء أو على الأرض ، فهم يشتاقون إلى الله وحده ، لأنهم بإرادتهم قد تعرّوا من كل شئ ، وألبسوا ضميرهم نظر الله وحبه . ولهذا فإن عمل السكون هو عالٍ وأفضل من جميع الفضائل .

(١٤) وغرضنا من حفظ السكون ليس هو لأجل تكميل القوانين ، بل قصدنا من حفظه إنما هو لأجل عمل القلب . لأن تكميل القوانين يتخلف بسبب ضعف الجسد ، وأما عمل

القلب فينمو ويزيد بالجلوس فى الوحدة .

(١٥) وعمل القلب ينقسم إلى أربعة أنواع : حزن القلب، اتضاعه ، وهمّه لأجل خطاياه السابقة ، وخوفه من الزلل والسقطات الحادثة له ، لأنه بهذه تتربى صلاة القلب ، أى بالحزن والإتضاع والهذيذ بالفضائل ، أما الهذيذ بالفضائل فهو تحريك (أى تأمل) حُسن تدبير القديسين ، لأنه من هذا النوع من الهذيذ تتيقظ النفس حتى تتزين بفضائلهم ، ويأخذ الراهب شبههم فى ذاته ويتمثل بهم فى الصبر والفرح بالضيقات والتجلّد فى الوحدة وعفة الأعضاء والازدراء بشهوة الجسد والإهتمام الدائم بالطهارة ، وأن يكون غير محسوب بالكلية ، لأنه من هذا يتولّد فيه عدم الغضب . الغضب غير الحرىّ (غير اللائق) الذى هو دليل العظمة الكامنة داخل النفس .

(١٦) ومثلما تتصور فضائل القديسين فى النفس، فإنها بغير عناء تتبع مثال صبرهم ؛ لأنه بهذا تتنقى صلاتنا من الانحلال والملل . فمن (حالة) الطياشة فى الأفكار (يتبدل الوضع) فتأخذنا غيرة فضيلتهم، وكم من مرة يقبل الله صلاتنا .

(١٧) وهذا هو القصد من عمل السكون : أن يقوم به العقل وينشجّع ويتطهّر ويطرد الكسل ، حتى تكون شهوته فى كل أوقاته فى مفاوضة الحسنات ، وبعدم تذكار العالم تملك فيه حرارة دائمة بذكر الفضائل . وهكذا يتدرج إلى نقاوة عمل العقل الذى هو العمل الفاضل .

(١٨) ومن هذين الأمرين (أى من الهذيذ بفضائل القديسين ، وعدم تذكار العالم) يقتنى الراهب أمرين فاضلين : الأول هو التقرّس فى خلائق الله ، والتعجب بالسياسة الإلهية فينا من الأول إلى الآخر ، والأمر الثانى هو الهمّ الفاضل بالله وحده والذى يجذب للدهش فى طبيعته على الدوام ، وضمير عالٍ متحكم بالروح ، ومعرفة فاضلة ، وإيمان سرّى متضاعف باهتمام العالم الجديد وبالهذيذ بالمزمعات ، وانتقال دائم (إلى العالم الجديد) بسَفَر الضمير ، وظهور أسرار فى الذهن تتغير بحسب المنازل فيرتقى (من درجة إلى أخرى) بغير إرادته . وينتهى أمره أنه يتحد بالأزلية الإلهية ، ويرجع العقل إلى العلة الأولى (أى إلى الله) فى كمال تدبيره ، ويتفرّس فى ترتيب حب الخالق وفى إرادته الصالحة للناطقين . وهنا تبطل الشكوك ويبطل الخوف .

(١٩) إلى هذا الكمال ينتهى قصد تدبير الوحدة والعمل فى القلاية ، لأن الجسد يضعف والضمير يتشبب والحواس تبطل والمعرفة ترتفع والأفكار تشرق بالنقاوة ، والذهن يطير ويرتفع إلى الله بتصوره ، والضمير ينقبض من العالم ويطيش بالله بهذيذه ، ومع أن الفكر مشتبك مع الجسد لكنه لا يثبت معه بل تكون مفاوضته دائماً فى العُلا فيما هو أفضل . الجسد اغتمّ وكفّ ، والقلب يُسَرّ بالفرح ، ومن دون المعرفة لا يرتفع القلب . أيها المسيح أخرجنى من الظلمة إلى النور لكى أسبحك تسابيح القلب لا الفم .

فى التاؤريا :

(٢٠) الذى قد بلغ إلى تدبير التاؤريا ومعرفة الروح ينبغى له جداً الوحدة والسكون فى موضع سكنه ويكون منقطعاً من كل أحد ، لكى يقتنى سكوناً بسكون ، وبالأكثر فى الليل مثلما أرانا سيدنا أنه كان ينطلق فى الليالى إلى موضع قفر ، وذلك لتعليم أبناء النور المزمعين أن يسيروا فى أثره بهذا التدبير الجديد . لأن المفاوضة الفردية مع الله هو عمل الرتب السمائية الذى ظهر للناس بابن الله لما نزل إلى عالمهم وأراهم عمل غير المتطورين ، لأنهم يتحركون بتمجيد الله بلا فتور ،

ويرتفعون بتصوّر التاؤريا (أى بالنظر الإلهى) إلى طبع الثالوث المسجود له ، ويشبتون فى الدهش بنظرة عِظم ذلك المجد الذى لا ينطق به ، وبهذا التدبير فإن جميع البشر عتيدون أن يكونوا فى القيامة العامة .

فى تاؤرية الإنسان الجوانى :

(٢١) كلما يدنو الإنسان إلى معرفة الحق ، ينقص فعل الحواس ويزيد صمت الإفراز دائماً . وبقدر ما يقترب من تدبير العالم بعمله تكثر فيه يقظة الحواس وتلذذها . لأن تقلّب هذه الحياة قد أُعطى لخدمة الحواس ، أما التدبير المزمع فهو لعمل الروح . بل إن الحواس فى هذا العالم لا تحتمل استعلان ذلك السرّ ، فتتخلف عن عملها مثلما تكون أثناء النوم . فالحواس ليست هى التى تستقبل ذلك السر الذى يُعطى كعربون ، بل الإنسان الداخلى . يعطيك الله أن تعرف قوة العالم المزمع ، فبهذا تتخلف عن جميع استعمالات هذا العالم .

فى الصلاة :

(٢٢) قصد هذه المقالة أنه ينبغى لنا أن لا نبطل أى نوع من الأنواع الجسدانية اللائقة بالصلاة برأى فاسد ولو أننا نرتفع بتدبيرنا إلى علو الأعالى ، وأعنى بهذا القيام

فى الخدمة (أى المزامير) والسجود والمطانيات . لأن خدمة المزامير تخلصنا من شرور كثيرة ، وبهذا نبلغ إلى موهبة طهارة الصلاة وإلى نظرة العقل التى هى الأفهام بالروح: لأن هذا هو كمال الخدمة وغاية كل ترتيب القوانين .

ماهو حب الله وكيف يُقتنى ومتى ؟

(٩٣) حب الله ليس هو شيئاً غير معروف يختلج (فى القلب) بغير إفراز . كما أنه لا يُستطاع أن يتحرك فى الإنسان من معرفة الكتب ، ولا الإنسان نفسه متى أراد يقدر أن يحب الله من معرفة القراءة وسير الكتب . ولا حين يملك على العقل الاستحياء من تذكار عظمة الله ويخاف منه بإفراز خوف العبيد أو مخافة البنين ويتيقظ لعمل الفضيلة ولحرارة الصلاح والاحتراس من الأمور التى ينهى عنها الناموس ، ولا بأن يغصب الإنسان ذاته قسراً بالجهاد والعناد لكى يتصور فى نفسه حب الله . ولا من العادات والتحيلات البشرية ؛ حتى ولا من النواميس والوصايا التى على الحب يُستطاع أن يُحَب الله ؛ لأنه من الناموس يتولد الخوف وليس المحبة . ولكن هى عطية ينالها الإنسان إذا ما قَبل روح الاستعلانات ، فتتجدد نفسه بحركاتها بحكمة الله التى تفوق العالم ، ويبتدئ يحس بالله فى ذاته أنه عظيم جداً .

فبغير هذا لايمكن أن يدنو إلى مذاقة المحبة المحمودة. لأن الذى لايشرب الخمر لايسكر من الخبر على صفته، والذى لم يؤهل فى ذاته لمعرفة عظائم الله لايقدر أن يسكر بمحبته .

فى سيرة السكون :

(٢٤) قبل كل شئ ينبغى أن تعلم أن تدابير المسيحية تنقسم إلى طرق كثيرة متنوعة ، وذلك لمعرفة المسيح سيدنا بعجز وضعف طبع بنى البشر وكثرة اختلاف آراء النصارى ، إذ ليس الجميع يريدون أو يستطيعون أن يسلكوا فى طريق الكمال التعبة العسرة لكى يدركوا بعمل الجسد وعرق النفس ذلك الشئ الذى من أجله أدركهم المسيح ، أى أن يحبوه بالكمال بعمل وصاياه المحيية حتى إلى الموت مثلما أحبهم هو بالتمام ، وأظهر حبه لهم بالفعل بكل تعب وتجربة احتملها من أجلهم حتى إلى موت الصليب المُهين . فلهذا استعمل معهم الرحمة، فوضع قدامهم طرقاً كثيرة وسبلاً مختلفة لكى الذى لايقدر أن يسير فى الطريق التعبة لأجل صعوبتها يسير فى الأخرى لأجل سهولتها حتى لا يخيب أحد من النصارى من ميراث تنعم بملكوت السماء الذى أنعم به عليهم بسفك دمه من أجلهم .

(٢٥) لأن كل إنسان بحسب محبته لربنا، وبمقدار عمل وصاياه هكذا تكون مكافأته ويكون تنعمه. وقد قال ربنا: " فى بيت أبى منازل كثيرة "، وقال بولس الرسول: " إن نجماً يمتاز عن نجم فى المجد، هكذا أيضاً يكون فى قيامة الأموات ". ولهذا قلنا إنه يوجد اختلاف كثير فى سيرة المسيحية، فكل واحد أفضل من رفيقه وأكمل.

(٢٦) تدبير العلمانيين النصارى الحقيقيين شئ، وتدبير المتورعين شئ آخر، وكذلك آخر هو تدبير الرهبان الذين لا يتخذون نساءً ولا يأكلون لحماً، وهم أقل من المتوحدين وأفضل من المتورعين. هؤلاء الرهبان يزرعون ويحصدون ويخدمون من يطرقهم، لأن أديرتهم مبنية على قارعة الطريق. وهناك أيضاً تدبير المتوحدين المبتدئين وهؤلاء هم سُكان فى مجامع كنوبيون، ثم تدبير المتوحدين المنفردين فى القلالى ويحفظون السكوت، وتدبير المتوحدين الذين يحفظون سكوت الأسابيع أعنى صوم سيدنا وصوم الرسل وصوم الأنبياء. وكذلك هناك قانون وتدبير المتوحدين الذين يجلسون منفردين خارج المجامع وفى البرارى والمغاير. وآخر هو تدبير وسنن المتوحدين المتنقلين. كالذين كتب عنهم الأب إشعياء، وكالسبعة الذين مضوا

إلى الأب شيشوى ، وآخر أيضاً هو التدبير العالى الكامل الذى للسوّاح . ويقصر بنا الوقت أن نتكلم عن أشكال وتدابير هذه الرتب المختلفة ، لأن كل رتبة منها تحتاج ميمراً ليظهر ماهو تدبيره وماهى كيفية عمله .

(٢٧) والآن نتكلم عن تدبير المتوحد الذى يمسك سكون الأسابيع ، ولأى سبب كان الآباء - كل واحد فى زمانه - يأمرون الأخوة بالجلوس فى السكون ، ونُظْهِر بعد ذلك ماهى منفعة السكون . تَعْلم أن أيام القديس مقاريوس ما كانت مثل زماننا نحن ، إذ لو كانت أيامنا مثل ذلك الزمان الذى عاش فيه القديسون لما كانت هناك ضرورة تدعو الإخوة المبتدئين إلى الحبس أسابيع محدودة . لأننا نعلم من الكتاب الذى وضعه القديس مقاريوس أن الأخ المبتدئ لايخرج من قلايته فى وسط الأسبوع مطلقاً ، ولايزور أحدٌ أخاه . لكنهم فى يوم السبت كانوا يخرجون من قلاليهم وقت العشاء ، ويأتون إلى المجمع وهم صيام ، لأنهم كانوا يتقربون عشية السبت لموالى السنة صيفاً وشتاءً .

(٢٨) ولما كان الآباء والإخوة يخرجون ويأتون إلى المجمع ليسمعوا القراءة ، فالذى كان يتهاون ولايحضر كان يقطعون عليه بحكم صعب . وبعدما يتقربون يدخلون

إلى المائدة . وبعد الأكل يقفون فى الصلاة ليلة الأحد ساهرين بلا نوم من العشية إلى باكر بخدمة المزامير والتسابيح وقراءة الكتب وتفاسيرها وأسئلة الإخوة وإجابات الشيوخ ويترتبون منهم بالمواعظ . وما كانوا يعطون فرصة لا للشيطان ولا لأحد من الإخوة المخلين أن يتكلم كلمة تجلب خسارة لأحد ، ولا أن يثلب أحد رفيقه أو يحرك معه خصومة ، أو أن يجلب أحد ذكر أى شئ من أمور العالم أو من سيرته الباطلة حتى لا يتأذى أحد من الإخوة المحترصين .

(٩٩) فحتى وإن كان أحد يتأذى فى قلايته ، إما من ضجر أو من قتال ، فهو عندما كان يخرج إلى المجمع كان ينتفع بمنظر الآباء ، ويعتبر بالغيرة كما ينبغى عندما ينظر أعمال الآباء ويسمع كلامهم ويشاهد فضائلهم فيتزود مما نظر وسمع بمنفعة عظيمة ومعونة فى العمل والجهاد فى حبسه . ورغم هذه المنفعة كلها التى تكون من اجتماعهم يوم الأحد ، فمع هذا ما كانوا يسمحون للإخوة أن يخرجوا من قلاليهم وسط الأسبوع .

(١٠٠) أما فى زماننا هذا العادم من الاستقامة ، الذى بَرد فيه الحب وتخلفت الحرارة وانعدم التحفظ ، فإننا كل وقت نخرج فيه إلى المجمع نوسق خسارة ليست بقليلة

بسبب كلامنا الباطل ، ولا تكون فى صلاتنا وخدمتنا قوة .
وإن كان فينا إخوة حريصون فإن حرصهم طوال الأسبوع يتشتت بسبب الكلام الردئ الذى يسمعونه من المعتادين بالانحلال . فالضرورة تُلجئ الذين يهتمون بخلاص نفوسهم ويتشوقون لمحبة ربنا ولتكميل وصاياه المقدسة أن يداوموا الثبات فى السكون كل واحد حسب رتبته .

(٢٣) أولاً يُبعد الإنسان ذاته ، ويحدد لنفسه قانوناً ألا يخرج مطلقاً من قلايته طوال مدة الأسبوع ، ولا يسمح لأحد من الناس أن يعبر إليه . وإن أمكن ولا من الطاقة يتكلم مع أحد ، حتى يأخذ لنفسه خبرة فى جميع الضوائق التى تحدث له من الآلام ومن الشياطين الملاصقين لعمل السكون الأسبوعى ، ويميز الأفهام الروحانية والتعزيات الإلهية التى تعطى له بنعمة الله حسبما يليق بطقس عمل السكون الصغير الذى هو حبس الأسابيع . وبعد ذلك يتدرج إلى سكون أعلى من هذا . الذى هو سكون كل الأيام . وإن استطاع وأراد فيكمل كل أيام حياته فى السكون الكلى والإنقطاع الدائم حسب إرادة سيدنا .

(٢٤) فإن كان أحد يحفظ سكون الأسابيع ، ويعمل

داخل سكونه بحفظ الحواس وقمع الأفكار كقدر قوته وحسب - لأن الله لا يطلب من الإنسان أكثر من قوّته. ولكنه عندما يخرج إلى المجمع يوم الأحد، يجد أنه لا يأتي إلى قدام ولا ينتج في الحفظ وفي الأعمال ولا في محبة الثبات في السكون بالقلاية، بل كم من وقتٍ يخسر من النظر والسمع، ولا يقدر أن يثبت في الحرص، فتكثر عليه المجاذبات والإنزعاج لأجل الأمور النافعة وغير النافعة، وينحط إلى الانحلال والكلام ويبغض الثبات في القلاية، وتوسوس له الرخاوة أن يخرج ويدخل ويأكل ويشرب ويتحدث، فإن وجد ذلك فليسرع إلى السكون الكلي العادم من الدخول والخروج.

(٢٢) وأما قول الأب أوغريس في أمر الوحدة: "جيدة هي الوحدة والانفراد"، مع بقية كلامه: "ولكن فليحذر الأخ الذي لا يقدر أن يثبت قبالة التجارب الحادثة عليه في السكون، وليخرج إلى المجمع لئلا يتأذى في عقله"، هذه الوحدة التي تكلم عنها ليست هي سكون الأسابيع، ولا السكون الكامل الذي يُمسك به البعض، بل إنه يقصد السكن في البراري والجبال الذي لا يليق لكل أحد إلا لأناس عارفين قد نجحت فيهم المعرفة، وتزايدت محبة المسيح في قلوبهم، وافتنوا صبراً واحتمالاً كثيراً.

(٢٤) لأن ثلاث حروب صعبة تلتصق بالتدبير المنفرد في القفر : الخوف المرعب في الليل ، والضجر المحزن في النهار ، وضلالة الشياطين ولمغيانهم . هذه الثلاث حروب تأتي على الإنسان في البراري ، فإن كان جاهلاً غير مدرب ، وليس فيه حب لربنا ، وصبره قليل ، وليس له مرشد ، فسريعاً ما يتأذى عقله ، لأن صعوبة هذه الحروب الثلاث لا تحصل للإخوة الذين في المجامع الذين يحفظون سكون الأسابيع ، ولا لذلك الوسطاني حتى ولا السكون الكامل . وإن حدثت (هذه الحروب) لأحد منهم يقدر المرشد مع معونة الله أن يبطلها . ولهذا قال القديس أوغريس : « إن لم ينتفع الأخ من الوحدة (في البراري) فليرجع إلى سكون الأسابيع في المجمع » . وإنما يفعل ذلك برأي المعلم ، وإذن المدبر وبمشورة الآباء . وينتفع بصلوات إخوته . وإن لم يقبلوا منه في البداية فليداوم الطلبة إلى الله بحزن ودموع ليحرك في قلوبهم ما يليق بمنفعته . ولا ينبغي للإنسان إذا لم يطلب شيئاً من ربنا أو من القديسين أن يظن أنه سوف ينال سؤاله سريعاً ، بل عليه أن يداوم على الطلب مدة ، وبعد ذلك تُعطى له . ولا يظن أنه إذا تأخرت عنه الموهبة أن طلبته ليست هي بإرادة الله .

(٣٥) وقبل كل شئ يحتاج الذى يجلس فى السكون إلى هذه الثلاثة أشياء : الغرض المستقيم ، وتكميل خدمة الأوقات ، والمرشد . هذه الثلاثة أشياء لابد منها للمتوحد ، وإن كان لايقدر على الدوام أن يكمل قانونه فى الصلاة لأجل ضعف جسده أو من أجل ضجر نفسه ، فليكن محترصاً بغرضه (المستقيم) وبوجود المرشد ، لأنه إذا وُجدَ هذان الأمران فإنه لاضعف الجسد ولاضجر النفس يضرّ أو يعوّق . كما قال مار أفرآم : « إن طريقنا لاينجح بدون المرشد الذى قد وُضع من الله للذين يريدون أن يسيروا إليه . لأنه توجد معوقات كثيرة تولّد الضلالة وتحير الذى يريد أن يمشى فى طريق الفضيلة ».

فى الصلاة والهذيذ :

(٣٦) ليس هناك تدبيرٌ يقبض العقل من العالم ويجنيه من الخطايا مثل الهذيذ الدائم بالله . هنا العمل عَسِرٌ هوجداً وصعب ، ولكنه خفيف ولذيذ . وأنت أيها الأخ ، إذا كنت تريد أن تكون فى الهذيذ الدائم بالله ، الذى هو حجاب الباب أمام كل الأفكار الفاسدة ، فأبدأ بكثرة الصلوات على الدوام . فالهذيذ الدائم بالله هو يجعلنا مداومين الصلاة ، والصلاة أيضاً هى تحرك القلب للهذيذ بالله بغير فتور ، وتجعل العقل سماوياً

بالحركات الفاضلة . فالتعليم الإلهى والكلام الموافق لمخافة الله بالصلاة يُوجد .

(٢٧) وبحسب ما تعلمنا من سيدنا فى الوصايا التى قالها عن الصلاة وكيف ينبغى أن تكون حياة النصرانى وما هو الذى ينبغى أن يطلبه فى الصلاة ، فإنه بالضرورة مثلما نريد أن تكون تدابيرنا هكذا ينبغى أن تكون صلاتنا . كما ينبغى أن تكون طلباتنا بحكمة علمنا ، مُطيَّبة بالرجاء السماوى وبمفاوضة ومعرفة أسراره .

(٢٨) ولهذا فكل صلاة تكون هى أفهام على الحياة ، كما قال المفسر : إنه بكل نوع يصلى العارف يأخذ الذهن فهماً ما - بحسب ترتيب العلم الإلهى - لكى يبعد عن اللحم ويرتبط بالفهم بالحياة و بالتقلب (أى التدبير) وتذكار الأمور المزمعة ، لكى بنوع الصلاة بتعليم عالٍ ومعرفة فاضلة عن الحياة غير للمائتة ، بربوات أفهام نختلج فى ضميرنا ، نفهم كيف نحن من الأرض بطبيعتنا ، وبيد مَن ارتفعنا وتجنسنا به ، وبأى أسرار تحكّمنا بالفعل .

(٢٩) فالصلاة تليق بالكمال ، وهى استقامة الضمير ، ووعظ الأنواع الحسنة ، والحرية إلى الأمور المرتفعة ، وهذيذ الروح وتذكار السمائيات والهمّ بالخفيات .

(٤٠) الصلاة التى تكون من الحب تشجع الضمير، وتُلبس العقل قوة ؛ لأن الرجاء يلهب ضمير الإنسان ليتجلد على الشئ الذى هو فيه، ويصبر على الضيقات وشرور الأرض، وإذا قايسها بالخيرات الموعود بها تكون عنده كلاشئ، ولذلك الشبه ينقلب (أى يتغير) بمرآة ضميره من وقت لآخر بنعمة ومعونة الروح والتشوق الإرادى.

(٤١) والصلاة الكاملة تنير طريق الصعود بما يفوق العالم، فتتنشى النفس بالسمائيات وترذل هذا العالم بمحبتها لله، وتتشجع على الحروب التى تقابلها. وبالصلاة تتحنى النعمة التى تُسمى الملكوت، لكى بالحس بها ننسى الأرض ونكون فى سلام العقل بتلك الأسرار، وتقودنا لكى نعلم أن القوة هى من عند الله، حتى نتغير ونثبت فى الأمور الفاضلة، وإذ نحن فى الأرض يكون تقلبنا (أى سيرتنا) فى السماء، فتجعلنا نحس أن لنا مُقويا ومعينا سمائيا غير منظور ويعضدنا فى كل وقت على ما يرفع طبيعتنا (إلى السماء).

(٤٢) وكما قال القديس مرقس: إن الذى يصلى بفهم ينبغى أن يصبر على جميع ما يأتى عليه، لأن هذا هو زِىّ الصلاة أنها بالأفهام المدهشة تجعل العقل شجاعا وغير قابل للآلام. وبحسب قول القديس أوغريس:

إن كل من يصلى بفهم فإن هذه الفضيلة تعدّه للجهاد مع الشياطين بواسطة فهم كلام الصلاة ، وتشعله بمحبة أمور الدهر الآتى ، والمعرفة التى فيها بأفهام الطبع تفصل العقل من اللحم (أى من الجسد) . وقد أظهر هؤلاء القديسون الحروب التى تتحرك والتجارب التى تقوم على من يسلك فى هذا الطريق ، وإن كان من الطبع أو من الشياطين أو من الناس . وقال أوغريس : إن المعونة التى يأخذها العقل بالصلاة تنوب لذة الرجاء ، وليست الحروب فقط تكون عنده كلا شئ ، بل إنه يزدرى أيضاً بالجسد الذى هو سبب القتالات .

(٤٣) هذا هو تدبير الصلاة ، وهذه هى منفعة الهذيذ الإلهى الذى فيها . وهذا هو العمل الكامل الذى يعمله الذهن فى المصعد الإلهى (أى فى طريق الصعود إلى الإلهيات) . وهذا إنما يكون بالجلوس المنفرد والوحدة والبعد من جميع هموم العالم ، لأن هذا يولد الهدوء وسكون القلب . لكى بمداومة الهذيذ بالله والسكون من الأفكار يستطيع الضمير أن يتفرّس فى كل أنواع الصلاة ويقتبس معرفة عن الله ، وبواسطة الألفاظ يكون الدخول إلى الأسرار .

(٤٤) الصلاة بهذيذها كل وقت تقرب العقل إلى الله

وتشجّعه وتُنقّيه بغياراتها ، وتناوله القدس بهذيذها . هذا هو الهذيذ الذى يحبس كل هذيذ ، لأنه بالضرورة يربط العقل ليستضئ بالخفيات الداخلية ، ومنها تؤخذ معرفة الله . ومن هنا نحس بالفعل أننا بنو الآب السماوى ، ورثة وبنو ميراث يسوع المسيح . وهنا نقول ، « مَن يقدر أن يفصلنى من حب المسيح سيف أو نار ، وما تبقى ، « وإنى مصلوب للعالم والعالم لى » .

(٤٥) كل التماجيد تليق بالمسيح الذى بتدبيره بالجسد رفعنا من النظر للأرضيات ، وأرشد عقلنا للصواعد الإلهية التى تفوق العالم ، وبمفاوضة الصلاة قدّمنا لنظرة ملكوت السماء والهذيذ الدائم بها . ذلك الموضع هو الذى نحن مزمعون أن نقدم فيه دائماً السجود بالروح الذى ليس هو بمحدود لا بالجسد ولا بأقطار العالم ولا بالانحناء الظاهر ، بل بعقل يتجلى بحركات الدهش به بلا انقطاع ودون انقضاء فى بلد غير المتجسدين بذلك التدبير المرتفع عن لمس الصلاة . لأن الدهش هنا يكون عوض الصلاة ، وعوض الإيمان الذى هو أجنحة الصلاة تكون النظرة الحقيقية التى هى مملكتنا ومجدنا ، حيث يظهر لنا هناك أن الله ليس محتاجاً إلى تمجيد المخلوقين ، بل هو فى الحقيقة تنازل منه لهؤلاء جميعهم (أن يشاركهم فى التلذذ بمجده) .

(٤٦) لأننا هناك نقبل حقيقة كل شئ عن الله ، ليس عن طبيعته بل عن ترتيب عظمته ومجده الإلهى وحبه لنا ، حيث ترتفع كل الحُجب والأنواع ، وكل أشكال السياسة والتدبير من أمام العقل ، ويتبين لنا أنه ليس لأجل طلباتنا يعطى مواهبه ، ولا إنعامه بكيل ومقدار ، بل إنما جعل طلبتنا واسطة وزى كلام يوصل العقل إلى الطمأنينة فى أزليته ومعرفة اهتمامه بنا .

(٤٧) فعندما نقبل (معرفة) تلك العظمة التى لم يدركها قط طقس الصلاة ، ولا تصور فى العقل الطلب لأجلها ؛ لأن الشئ الذى يقبله الناطقون لم يصعد على قلب إنسان ، لأنه ليس فى طبعهم معرفته حتى يطلبوه ، ولكننا نفهم أنه بالحب يُعطى لنا إن كان هنا أو هناك ، وقد جعل السبب (فى هذا الإنعام) نحن ، ولحسن سيرتنا قطع أن تكون مواهبه هى من أجل إنعامه الغزير .

(٤٨) وعندما نأخذ معرفة هذه (الأمور) كلها ، عندئذ نعرف الأبوة الحقيقية والحب والصلاح الأزلى ، ونعرف أن الله غير محتاج إلى العالم ولا للتجديد المزمع ولا لملكوت السماء ، لأن الملكوت والنعم والنور هى لطبيعته . ومن أجل جوده أتى بهذا كله (أى المخلوقات والعالم) للتكوين ، فخلقنا ومن أجلنا خلق هذه كلها ليعطينا

ملكوته ومجده وعظمته وكرامته وكل سلطان أزليته.
ويجعلنا أزليين بلا انقضاء مثله، ولابسين نور حياتنا
بغير انقطاع، وليس لأزليته انقضاء ولا لمملكتنا.
المجد للذى بيده الجميع، والذى قدمنا لهذه الأشياء.
وقد دعانا نحن ذوى الطبع المائت بنينَ للآب
السماوى، وعرّفنا بالذى هو منذ الأزل.

+ + +
+ +
+

الميمر الثانى

ميمر مملوء من كل وعظ فى سائر أنواع الفضيلة؛ وإيضاح كل تدبير السيرة النفسانية التى هى الدرجة الوسطى فى الرهبنة. وتحذير من الإهمال فى قوانين الوحدة والسكون فى القلاية. ويغنى بإيجاز عن كتب كثيرة، ويدل بإنصاح على كل سيرة تدبير العقل، وخاصة فى عدم وجود المرشد والمعلم. بركة صلاة القديس ترشد كل مشتاق إلى الفضيلة آمين.

(١) بدء مخافة الله وأساس كل صلاح وباب عزاء الروح والتقرب إلى الله هو الاحتراس فى تدبير السيرة، وهو يتقدم على جميع أنواع خوف الله. فقبل كل شئ اضبط هذا حسناً، لأنه ليس أحد يُتَوَج - حسب قول بولس الرسول الإلهى - إن لم يجاهد بزِى وقانون تدبير ترتيب الجهاد. لأن سائر الأشياء لها ناموس وزِى وترتيب، سواء فى الجهادات العالمية، أو فى أعمال الصناعات الجسدية، أو فى سيرة الروح هذه. وكل إنسان لا يجاهد حسب ترتيب وناموس الجهاد لا يأخذ

تدبيره غياراً حسناً (أى أنه لا يتقدم فى طريقه). هكذا فى هذا الجهاد غير المنظور الذى يفوق العالم، يوجد فى مصافه (أى فى لمهس جهاده) ترتيب وزى، والذى يتخلف عن هذا فإن انقلابه موضوع تجاه عينيه على الدوام.

(٢) فينبغى للذى يتقدم إلى الطريق مخافة الله أن يغصب نفسه فى كل تدبير يقدمه لله إن كان فى الصوم أو فى الصلاة أو فى بقية الفضائل. ولتعلم أيها التلميذ أننا لا نستطيع أن نثبت فى الأمور الإلهية كما ينبغى إن لم نغصب أنفسنا فى كل وقت فى الأشياء التى تقربنا إلى الله. حتى الذين يشقون فى الأمور العالمية أيضاً إن لم يستعملوا التغصّب ليلاً ونهاراً لا يبلغون - ولو جزئياً - إلى حدود إدراك إرادتهم، لأنه مثلما يتعب ويشقى الإنسان من أجل الله، هكذا يحيط به عون إلهى ويقويه، ويسهل عليه كل شئ، ويُصلح الطريق أمامه فى كل موضع.

فى التغصُّب والقسر:

(٣) طوبى لمن غصب نفسه كل أيام حياته، لأنه من مزبلة الفقر يتكرم بجنس المملكة العظمى. طوبى لمن غصب نفسه دائماً فى لمريق الله، لأنه يصير من ذات الجنس الحقير مناسباً للجنس العظيم الشريف المعقول. فالتغصّب هو مُغنى الفقراء ومُكرم المحتقرين.

(٤) التعصُّب هو بدء لطريق الوحدة ، وبه يسعد النشطاء في طريق ملكوت الله ، وتُعد لهم التيجان من القوى القاهر. وإن كنت تسأل إلى أين وإلى أى حد أغصب ذاتى ؟ أقول لك : إلى حد الموت اغصب نفسك من أجل الله. وخذ لك حدود التعصّب من الأشياء الصغيرة النزرة .

(٥) أولاً، اغصب نفسك فى صلاة الليل وزِدها مزامير، حتى ولو كنت مريضاً ، إذا لم يكن مرضك شديداً لئلا تُضنك فى مرضٍ صعب ، بل إذا كان ضعفاً (عادياً) أو انحلال جسد ، فاغصب نفسك قليلاً ، لأنه يوجد رجاء عظيم ومعونة فى التعصُّب من أجل الله ، ولو بمزامير قليلة تزيدها عن العادة أو نسك (قليل) ، ليس لأن الله ينتفع بشئ (من ذلك) ، بل لأنك بها تقدم نفسك إليه .

(٦) اغصب نفسك قليلاً فتجد نعمة عند الله ، وبقدر ما تغصب ذاتك هكذا تربو منك المعونة من عند الله ، وتأخذ قوة من الروح فى الخفاء . ولو كان مزموراً واحداً أو اغناءً وسجوداً قليلاً زائداً عن العادة ، فإن نفسك تنشو عند الله دون أن تعلم ، وتحل عليك قوة ، وتؤهل لحفظ ملائكى ، ولحركة وزيارات من عندهم فى يقظتك ونومك ، وتأوريات لذيذة يُلقونها فيك كل حين.

(٧) اغصب نفسك فى ضرب المطانيات دائماً لأنها تحرك الحزن فى الصلاة . اغصب نفسك فى هذيذ المزامير، وإذا حان وقت الصلاة اغصب ذاتك وقم للخدمة وألقِ عنك ثقل الجسد الذى يجذبك أن تتخلف عن الصلاة . ولا تكن كمن ينتظر الساعات والأوقات وتتماتن (أى تتثاقل). وفى الخدمة أيضاً اغصب نفسك وصَلِّ بهول روح ، وتأنَّ فى تلاوة المزامير بصبر وجلدٍ بعيداً عن كل ضجر ، ولا تتلوها مثل مضغوط . بل مثل من يفكر أنه واقف قدام الله .

(٨) اغصب نفسك فى الليل أن تقوم وتسجد قدام الصليب ، ولو كان النوم ثقيلاً عليك ، والجسد يؤخرك . فهذا هو الوقت المقبول ، وهذه هى ساعة المعونة . جميع الآباء كانوا يصلون فى الليل حسب المثال الذى أخذوه من ربنا ، لأن الليل هو مفروز لعمل الصلاة مع البلد القفر .

(٩) اغصب نفسك أن تثبت فى قلايتك فى السكون. وتأكد أنه لهالما أنت فيها ، فحواسك مصونة وأفكارك وحزن قلبك (أى تخشعك) محفوظ ، وتكون شيئاً آخر غير ما أنت فى كل أمورك ، (وذلك) بالصلاة المتأملة فى خفايا الله .

(١٠) إذا ما اشتهى فكرك مآكل مختلفة ، اغصب نفسك أن تكمل شبع شهوة بطنك بالخبز فقط ، واذكر أتعاب القديسين العادمة من شبع الخبز كل أيام حياتهم .

(١١) كل تقصّب سواء كان بالإرادة أو بغير إرادة يعطى ثقة وأجراً وعزاءً . فأعمال التقصب نوعان : من الإرادة ومن غير الإرادة . والضيقة التى من كليهما هى لأجل مخافة . أما أعمال التقصّب الإرادى فهى : الصوم والصلاة والسهر والتجرّد والسكون والبعد من الناس والدموع والقراءة واشتياق ضرب المطانيات المنسحقة وما يشابه ذلك ، وهى التى يقبل الإنسان على نفسه عملها لأجل خوف الله . وأعمال التقصّب غير الإرادى هى : المؤذيات والأحزان والأمراض ، وما يتولّد منها ويحدث للجسد ، وصعوبة المرض ، وعوز الغذاء ، والضيق من الحبس والوحدة ، وتخويف وعذاب الشياطين ، والجوع المضنى وانعدام المعونة من البشر . وضغطات وضيقات من قلة الكسوة بسبب المسكنة ، وأحياناً تحصل عثرات فى الجبال والمواضع العسرة التى يعيش فيها القديسون من أجل الله .

(١٢) من دون التقصّب لا صوم يوجد ، ولا عفة الجسد ، ولا صلاة حزن ، ولا خدمة إلهية ، ولا ضرب

مطمئنات متعبة ، ولا تزمير بغير ضجر ، ولا تلاوة بألفاظ هادئة ، ولا مفاوضة سهر الليالى .

من أجل الصلاة :

(١٣) كن مداوماً الصلاة ، وألزق بها أنواعاً حسنة ، لأنه بالأنواع الجيدة والتدابير الصالحة يتزين الإنسان أولاً ، وبعد ذلك يتقدس بالصلاة . فالصلاة التى لا تقترن بأفكار عالية فاضلة هى كلام ساذج ليس لها قوة عند الله . أما إذا اقترنت قوة حسن السيرة بالصلاة ، فإنها تكون مثل لهيب نار فى حركتها . لأن « عظيمة هى قوة الصلاة التى يصليها البار » ، تأمّل قوله إنه ليس كل من انقق بل تلك الصلاة التى يصليها البار . فالقوة ليست للكلام والصلاة ، بل للبر . وهوذا موسى وشموع وإيليا واليشع من غير صلاة كانوا يفعلون المعجزات .

(١٤) الصلاة هى عمل مرتفع متعالٍ على جميع الفضائل . وفضيلة أشرف من كل الأعمال ، وليس منها أوبها تقتنى الصلاة ، بل إن الصلاة تتولّد عند الإنسان من أمور أخرى ، والذى لم يقتنِ واجباتها لا تصدق أن له صلاة . فالصلاة هى ذكر الله الدائم الذى يكون فى قلوب خائفيه . أعنى بذكر الله شخوص النظر الفاضل الذى يكون فى قلب

الإنسان . فهذا العمل هو الذى يكمّل لنا الصلاة ، إذا كان منا بإفراز .

(١٥) الصلاة هى أمر موضوع بين النفسانية والروحانية . كشئ متوسط ضابط للسيرتين ومحركاً إياهما ، فبها يكمل عمل التوبة الذى هو ندم النفس والحزن ، وبها أيضاً تتحرك النفس بحركات تفوق سائر الحركات الجسدانية والنفسانية . وهذا هو ما يسميه الآباء " التدبير الروحانى " . والدخول إليه يُعطى إنعاماً من الله وليس من حركة أو استعداد أو إرادة . فالذى يتهاون فى الصلاة ويظن أن له باب آخر للتوبة هو مخدوع من الشياطين .

(١٦) جمع العقل والطهارة فى الصلاة . لا يمكن أن يكونا بدون الاحتراس الكثير فى الكلام والأعمال ، مع حفظ الحواس . كما أن المعرفة التى تمنحها النعمة لا يمكن أن تأتى ما لم يقتنِ الإنسان الإفراز الكثير بواسطة السكون .

(١٧) وبحسب الكرامة التى يظهرها الإنسان فى شخصه تجاه الله أثناء الصلاة ، بجسده وعقله كليهما ، هكذا ينفتح له الباب لقبول المعونة ، وتقوده إلى نقاوة الحركات والاستنارة فى الصلاة . لأنه على قدر اهتمامه بالزى الحسن أثناء الصلاة ، إذ يظهر الحشمة والتوقير ، ويبسط يديه نحو السماء ويقف بوداعة ، أو يقع على

وجهه على الأرض، هكذا يؤهل لنعمة عظيمة من العلاء (من أجل هذه الأفعال المتضعة). فمَن يزين صلاته على الدوام بمثل هذا الزيّ الخارجي، يؤهل سريعاً لفعل الروح القدس، من أجل أنه يُعظم الرب في عينيه بالوقار والتكريم الذي يظهره في الذبائح التي يقرّبها أمام الرب (أي الصلوات) في الأوقات المحددة، بناموس الحرية.

(١٨) فاعلموا، يا إخوتي، أن الله يطلب (أن نهتم) جداً جداً أن نُظهر في كل الأعمال التي من أجله، الزيّ الخارجي الحسن وأنواع التوقير والتكريم اللائق بكل اهتمام. وذلك ليس من أجله، بل من أجل منفعتنا نحن؛ لأنه هو نفسه لا ينتفع بأشياء مثل هذه، ولا يُضار (إذا نحن أهملناها)، بل إنها بالأحرى تكون من أجل طبيعتنا الضعيفة، ولو لم تكن ضرورية لَمَا اتخذ لنفسه مثل هذه الأشكال وهذا الزيّ في تجسده بنوعٍ من السياسة، وهكذا تكلم معنا في الأسفار المقدسة.

(١٩) إن كثيرين استهانوا بهذه الأشكال الخارجية، وزلّوا بأفكارهم معتبرين أن الصلاة في القلب تكفي لله، وأنه لا يريد منا شيئاً آخر، ويدّعون إنه إذا كانوا مضّجعين على ظهورهم أو جالسين باستحقار، يكفي

أن يكون لهم فقط تذكار داخلي لله ، ولا يهتمون أن يزينوا عملهم الظاهر بالوقوف الحسن حسب قوة أجسادهم وترتيب الحواس ويرسم علامة الصليب عليها . كما أنهم حين يسجدون على الأرض لا يهتمون أن يعملوا ذلك بتوقير ورعدة كمن يتقدم إلى لهيب نار، ولا يعتنون أن يتخذوا لأنفسهم أشكالاً حسنة وزياً وتوقيراً من الداخل والخارج ، أو أن يقدموا للرب توقيراً وكرامة خاصة بترتيب أعضائهم ، والخشية والحياء على وجوههم . وذلك لأنهم لم يفطنوا إلى مكر العدو وصعوبته ، ومن هنا أسلموا لفعل الزور والبهتان. ولم يفهموا أنهم مازالوا إلى الآن مائتين وقابلين للميالة بحركة نفوسهم التي صارت خاضعة للانحراف ولم يتحققوا من أنهم لم يبلغوا بعد للدرجة الروحانية .

(٢) ولست أعني بقولي هذا أن نغصب المرضى والضعفاء أن يكونوا تحت هذا الناموس ، أو أنه ينبغي للإنسان أن يتدبر بما هو غير مستطاع ، بل قولي هو أنه ينبغي أن يكون عملنا بخوف ورعدة ووقار، فكل شئ يُعمل بوقارٍ ورعدة يقبله الله كالقربان المختار، حتى ولو خرج عن حد الناموس وعُمل بخلاف العادة تحت الاضطرار . وهو لا يلوم الشخص الذي يعمل هكذا ، وليس هذا فحسب ، بل إنه يقبل بمسرة تلك

الأشياء الحقيرة الضئيلة التى تعمل لأجله بإرادة جيدة كالأشياء العظيمة الكاملة . فحتى إن كانت بغير الواجب، فإن فاعلها يُحمل بالرحمة من قبل الله ، لأنه عارف بضروريات طبعنا من قبل أن يخلقنا .

(٢) لأن الله رحوم متحنن صالح . لايحاسب ولا يدين الإنسان على عوارض الطبع وضروريات (أى الأعمال التى تُعمل عن اضطرار) ، حتى ولوكانت تستوجب اللوم ، لكنه يدين على الأعمال المستطاعة لدينا إذا احتُقرتْ وأُهملت منا . إنه لايدين حتى على ميالة الطبع (نحو أى شئ) ، حتى ولوكان خطأً عظيماً وبالإرادة ، إذا كان حدوثه بنوع عارض ، ‖ ولكنه يدين على الفعل الذى ينتهى إليه ويؤدب بالعدل ‖ ، لعلمه أن ذلك سيقود فاعله إلى الندم وحزن الضمير ، وبالأكثر إذا لم يسلم الشخص نفسه بالكمال للهلاك . وإن كنا قد تكلمنا بهذا كله ، لكننا نلوم الذين يفسدون ترتيب الصلاة بعنادهم ، إذ أنهم بحماقة فكرهم يتصورون أنهم صاروا كاملين ، وبمعرفة كاذبة يخترعون لأنفسهم شيئاً أو آخر بجهالة .

(٢٢) ‖ إن القلب يقتنى حرية أعظم فى الحديث مع الله فى الصلاة (الخاصة) أكثر مما يفعل أثناء خدمة

الأوقات (أى المزامير) . ولكن الإهمال التام للخدمة يقود إلى الكبرياء ، وبسبب الكبرياء يبتعد الإنسان عن الله. والحقيقة أن الإنسان حين يغصب نفسه أن يخضع للقانون - فى الوقت الذى يكون فيه حُراً تماماً فى تدبير سيرته - بهذا يحفظ نفسه متواضعاً ، ولا يعطى لشيطان الكبرياء أية فرصة ليعرض له أفكاره الشريرة. وإذ يداوم على اعتبار نفسه أنه حقير وغير أهل للحرية ، فإنه يتضع ويمكنه حينئذ أن يخضع أى فكر كبرياء . فليس هناك لجام أعثر من هذا فاعلية يضعه الإنسان فى فم العقل الذى يُعظم نفسه . وهذا هو السبب فى أن الآباء القديسين ، رغم أنهم كانوا يقتنون الصلاة الدائمة ، وكانوا ممتلئين من الروح ، وكانوا لا يتوقفون أبداً عن الصلاة لحظة واحدة ، إلا أنهم كانوا يهتمون بالترتيب الموضوع لكل وقتٍ (من أوقات الصلاة) على حدة . وبالعدد المحدد للصلوات بما فى ذلك مشاركة الجسد التى تتمثل فى السجود ، ويلاحظون ذلك ليس فقط فى خدمة الأوقات بل وأيضاً فى تلك الصلاة (الدائمة) ، وكانوا يعملون هذا كله بموجب القانون الذى قرّروه لأنفسهم ☩ .

(٣٣) فى الصلاة والخدمة يوجد ناموس حرية وناموس عبودية ، والاثنان يتدبران من الإرادة . أما ناموس

العبودية فهو كقولك ، سوف أتلو كذا وكذا مزمور فى كل صلاة من صلوات الأوقات بعدد محدد دون تغيير، فتكون مرتبطاً بهذه المزامير جميع الأيام . ومن يعمل هكذا يكون قد ربط نفسه بهذا الالتزام (بحدود العدد والطول ونوع المزامير) التى قررها وجزم بها على نفسه. وهذا بعيد تماماً عن معرفة الحق ، ‖ لأن مثل هذا الشخص لم يأخذ فى الاعتبار لا عمل النعمة ولا ضعف الطبيعة أو خطر القتالات المتعددة . إذ فى الحالة الأولى قد تُعطَى النعمة حتى أنه يتأخر أكثر مما وضع لنفسه، وفى الحالة الثانية قد يتبين ضعف الطبيعة الشديد تحت ضغط قتال الشياطين الذين يهاجمونه ، وهذا يكون - بصفة خاصة - بهدف قمع الكبرياء ‖ .

(٢٤) أما ناموس الحرية فهو أن تحفظ بتحرز (أى باهتمام بالغ) عدد السبعة أوقات التى حددها مجمع نيقية فى البيعة المقدسة على (لابسى) هذا الإسكيم لحفظ حياتنا ، وحاشا لنا نحن المتوحدين أن نخرج عن طاعة وحدود قوانين البيعة ورؤسائها وسُننهم . ولأجل هذا نحن نحفظ (بتدقيق) حدود سبعة أوقات الخدمة حسبما وضعتها علينا البيعة كالبنين . ولكن هذا لا يعنى أنه يجب على الإنسان أن يلتزم فى كل صلاة وفى كل يوم بعدد محدد من المزامير ، أو أن يجزم على نفسه بعدد ثابت

من الصلوات (الخاصة) يصلى بها بين هذه الأوقات فى الليل والنهار، [أو يحدد فترة معينة لكل صلاة من هذه الصلوات ، أو يلتزم بكلمات معينة يقولها .] بل بالأحرى ينبغى لنا أن نثبت فى كل صلاة على قدر القوة التى تكون من النعمة ، وعلى قدر الوقت ، ونطلب بحسب ما تدعو الضرورة إليه فى تلك اللحظة ، ونصلى بأى صلاة نتحرك بها . فإذا ما صلينا (بهذا الأسلوب)، فإننا نكون حينئذ بعقل منجمع ومنقبض من الطياشة [بسبب لذة هذا النوع من الصلاة . وعلى الإنسان فى مثل هذه الصلوات أن يوازن بين طلبته وقوة الطبيعة البشرية والحكمة التى يمنحها له الرب] .

(٢٥) [وقد يقتنى الواحد تقدماً أكثر فى الحرية بما لو كان خاضعاً للقانون ، إلا أنه كثيراً ما يتفرع عن الحرية سُبلٌ كثيرة تقود إلى الخطأ ، لأنه فى الحرية تتخفى أنواع كثيرة من السقطات ، بينما مع القانون لا مجال مطلقاً لأن يضل أحد . فالذين يثبتون تحت نير أى قانون، قد ينقادون للسقوط متى أهملوا القانون واستهانوا به . ولهذا فالقديسون القدامى ، الذين أكملوا سيرتهم دون أن يضلوا ، كانوا يضبطون أنفسهم بواسطة القانون . وكثيرون آخرون تركوا متطلبات قانونهم ، ومع أنهم

أضافوا إلى جهادهم أعمالاً أكثر مما هو موضوع لهم ، إلا أن أتعابهم التى زادوها لم تمنعهم من الوقوع بين أيدى الشياطين ، وذلك لأنهم تركوا قانونهم . ولا يستطيع أحد أن ينكر هذا ، لأن أخبار هؤلاء الأشخاص تضئ أكثر من أشعة الشمس لإنارتنا].

(٢٦) كن متقدماً على الدوام فى صلواتك قبل وقتها ، لكى تكون خفيفة عليك . وإذا اتفق أن فاتك وقت من أوقات الصلاة بسبب أى أمر عارض فلا تضطرب ، ولا تتسجس من هذا ، ولا تهملها أو تتهاون فى تكميلها . فمثلاً إن كانت هى صلاة باكر ، ولو كان قد مضى من النهار ساعتان ، ابدأ واخدم مزاميرك بحرية ، وأكملها بلا نقص بجميع واجباتها بهدوء وبغير خبال (أى ارتباك) ، حتى ولو كان هو وقت العشاء لا تتكدر ولا تضطرب بل (أكمل صلاتك) بهدوء عقل ، لأنه ليس لك عمل آخر ضرورى تكمّله أعظم من الصلاة . فإن كان الراهب يتهاون فى تكميل صلوات الأوقات فما ينبغى له أن يجلس فى القلاية ، ولو أراد أن يثبت فيها فلن يقدر ، لأن أصل العمل مع الله فى الرهبنة هو الصلاة ، وهذا قد أبطله فأى شئ آخر له أن يعمله ؟ لأنه ليس للراهب عمل آخر فى القلاية غير الصلاة والمزامير ، فإن تخلف عن ذلك فمن أجل أى شئ يجلس فى القلاية ؟

(٢٧) حياة المتوحد وعمله المكرم عند الله هو الصلاة. والذى ليس له خدمة ولا صلاة بحسب واجباتها، والذى خدمة الأوقات مهملة عنده، فهو كسلان وبطّال.

من أجل المزامير

(٢٨) لتكن لك محبة بلا شبع للمزامير ولتماجيد الله، لأنها مفاوضة الروح. واعتنِ أن تبتعد عن كل تصرّف ردئ قبل أن تبتدئ فى قراءتها؛ لأنك إذا ما زيّنت ذاتك بأنواع حسنة وابتعد عقلك عن كل فكر عالمى، عند ذلك فى وقت الخدمة تحلّ على عقلك قوة الروح وتكون خدمتك رائحة زكية أمام الله.

(٢٩) كل لفظ فيه ذكر الاسم المسجود له، وبالأكثر فى التسبيح، اِحْنِ رأسك بالسجود، لأنه بكل نوع ينبغى لنا أن نكرم الله: فى وقتٍ بالقيام أمامه، وفى وقتٍ بالانحناء، وفى وقتٍ بالسجود. ليس لأن الله يُكرَّم بهذا، بل لأنه فى الحال يتغير نوع فكرك، ويتعفف داخلك من الأنواع الحسنة التى تصنعها بجسدك، لأن العقل يقبل فى الأمور الإلهية تغييراً عجيباً وحرارة، ويلتهب فى الله بحركاته.

(٣٠) لاتحسب أنها بطالة كثرة الثبات فى السجود الكثير قدام الله ، حتى المزامير ليست أعظم منها ، لأنه ليس شئ من الفضائل التى يعملها الناس مثلها ، وليس شئ محبوب عند الله أكثر منها . وليس شئ مكرم فى عيون الملائكة ، وقاهر للشياطين ، ومرعب للجن ، ومُفيض للمعرفة وجاذب للرحمة ومُقنى للارتضاع ومفرح للعقل ، مثل هذا الشئ : أن يكون الإنسان جاثياً على الدوام قدام الله على الأرض . هذا هو مجمع التوبة الذى يهدف إليه وينتظره كل مجمع أفكار الندم مع الدموع . هذا هو ذخيرة المغفرة ، وغسل القلب وسلام العقل . هذا هو الذى يجعل العقل شبه الله .

(٣١) وليس شئ أيضاً مثل مداومة المزامير بشكل ونوع متحفف . مستوجبٌ كل ملامة هو التهاون بقراءة المزامير إذا تخلّف الإنسان عن ذلك بسبب المظمة . وأما الإنقاص منها بنوع الاتضاع فى السجود الذى لاينقطع ، فهذا هو كمال الأعمال ، وليس هو بطالة ، حاشا أن يكون كذلك . فهذا الأمر (أى السجود) يجعل الجسد مُروَّضاً والعقل مُجدَّداً مُحكماً بروح المواهب .

(٢٢) لاتشتهِ أن لاتصلى إلا عندما تشتقى من لمياشة الأفكار ، بل إعلم أن من مداومتك على الصلاة وكثرة التعب فيها تبطل الطياشة وتنقطع من القلب . فإن كنت لاتصلى إلا إذا ارتفع الفكر تماماً من تذكار هذا العالم، وإذا نظرته هكذا عندئذ تبدأ فى الصلاة ، فإنك لن تصلى إلى الأبد . لأن انقباض الفكر من الطياشة يكون من الصلاة .

(٢٣) قد يهدأ الفكر وقتاً ما ويجتمع إلى ذاته (ويصمت) من الصلاة ، وهذا الأمر سمعنا أنه يعرض - حسب قولهم - للذين يداومون الصلاة مدة طويلة من الزمان ، فيجدون من أنفسهم هذا الاحتراس الحقيقى بعد جهد . (ولكن) لوقت قليل وليس فى كل وقت . لأن هذا الأمر (أى صمت الفكر) يعرض أحياناً بسبب الدوام فى الصلاة ، وماسمعنا أن أحداً نال هذا من غير مداومة الصلاة ، ولاسمعنا قط أنه ماينبغى أن نصلى إلا إذا ما ارتفع الفكر تماماً من أشكال الأمور الحاضرة وعندئذ نسجد ونصلى . والذى يخرف (يهذى) بكلام مثل هذا إنما يطلب الكمال من قبل العمل ، وهذا شىء لايمكن أبداً ، لأنه إذا صمت الفكر من كل ذكر ولمياشة

فى الأشياء الحاضرة ، فإنه لم يعد محتاجاً إلى الصلاة ، لأن العقل يكون حينئذ قد كمل واتصل بالله وصار الله فيه .

(٢٤) فأنت أيها السائر قبالة وجهه ، إن كنت تريد أن تكون منقبض الفكر من وقت لآخر فقط ، فبئس ما ترى ، لأن الشئ الذى يمكن دوامه أنت تطلبه جزئياً . وإن كنت تريده على الدوام ههنا ، فاعلم أنك تطلب الكمال من غير عمل كبدعة المصلين(١) . أما أننا لا نوافق الأشياء التى تتشكل للعقل عندما نصلى ، فهذا مردّه إلينا (أى فى مقدورنا) ، وأما أن يمكث الفكر فى الصمت مبتعداً عن كل ما يظهر له ومتعالياً عن كل شكل وجهاد ، فهذا ليس فى قوة الطبيعة .

(٢٥) فإن كنت تريد أن تنقبض من لمياشة الأفكار وتجد فسحة للصلاة بعقلك ، اجمع ذاتك من الهيولى (الأمور المادية) ، ومن الاهتمام بالأشياء ، ومن الطموح والطياشة بالحواس ، لأنه كلما نقصت هذه الأشياء وجدت للصلاة الطاهرة موضعاً وفسحة من الطياشة . وهذا الهدوء يمكن أن يحصل جزئياً وليس على الدوام . وذلك مع الاهتمام الدائم بجمع النفس من الهيوليات ومن الطياشة بالحواس) .

(١) هم جماعة من الجهلة المتكبرين الذين يقولون عن أنفسهم أنهم متى شاءوا يمكنهم أن يصلوا الصلاة الروحية ..

(٢٦) إننا لا ندان لأجل تحرك الأشكال والأفكار فينا، بل نجد نعمة إذا لم نوافقها وقاتلنا معها. ولكننا ندان إذا كنا نوافقها ونعطيها موضعاً فينا. ولست أعني بقولي هذا أن نعطي للمياشة فسحة فينا، بل أن لا نكف عن الصلاة بسببها، وأن نحذر من أن نتخلف عن العمل، لأنه من حين يبدأ الإنسان تدبير سيرة العقل - التي هي الهذيذ الدائم بالإلهيات - إلى حيث يبلغ التدبير الروحاني الذي هو الدهش بالله، فهو أكثر من كل الأعمال يكون مفتقراً إلى الصلوات الغصبية التي تكمل بضرب المطانيات، ولا يبطل الصوم أبداً، ويأخذ من القوت حسبما يكفي الجسد للقيام بالصلاة والعمل فيها.

في الانفراد والسكوت

(٢٧) لا تصدق يا أخي أنه بدون الأعمال ينعتق الإنسان من الآلام، أو يشرق له نور النعمة. لقد رأينا أن كثرة المواهب لا يعطيها الله إلا لأناس عمالين. فبالأعمال تعرى آباؤنا القديسون القدماء من الإنسان العتيق. ولا تظن أن النسك عن الأطعمة فقط هو العمل، أو أن القيام في الخدمة يُبلغ الإنسان إلى النقاوة، بل الصبر عن مفاوضة الناس، والجثو دائماً قدام الصليب، ومشاركة هذه مع تلك حسب قوتك.

(٢٨) احذر أن تبطل شيئاً من خدمة الأوقات، بل قبل أن تنام أتعب جسدك فى الصلاة، لكى فى وقت نومك تحفظ الملائكة جسدك ونفسك من المناظر المخوفة والخيالات السمجة، ومن أذية الشياطين طوال الليل، لأن سريرك يكون قد تقدّس بتماجيد الروح وعمل الصلاة. وبدون تعب كثير أو مرض لانتام إلا أن وجدت جسدك متعباً جداً من كثرة القيام فى الصلاة والترتيل والسجود: لأننا إذا نمنا ونحن مستريحون تسخر بنا الشياطين الليل جميعه.

(٢٩) من السكون فى البعد والانفراد كم من وقت يحس المتوحد بأفكار تفوق الجسد، ولو أنه قليل الأعمال، وهذا من أجل فضيلة البعد من الناس. لأنه بمقدار ما يبعد الإنسان من العالم ومن الأماكن المأهولة، ويتداخل فى القفر والبرارى، فإنه يقبل سكون وهدوء الأفكار، ولا يشقى كثيراً فى الجهاد معها. لأن نظر القفر فقط هو بطبعه يميت القلب عن الحركات العالمية. فإذا كنا فى سكن الناس (أى فى مواضع سكناهم)، فإن أفكار السكن تحدث لنا، أما إذا كنا فى قفر البرية فإن أفكار القفر تحدث لنا. وإذا كنا مع كثيرين فأفكار الكثيرين تحدث لنا، وإذا انفردنا من الكل، فإننا نقتنى ضميراً منفرداً.

(٤٠) الطهارة لاتحفظ مع البشاشة والاهتمام بالأفعال والخلطة بالأمور . واعلم أن كل ألم (أوشهوة) يرتبط القلب بحبه ، فيألف حيلة من الأفعال وربوات صلوات ودموع ما ينعتق منه . هكذا أيضاً محبة السيرة (إذا ارتبط بها القلب لاينفك منها) . لقد حذّر الآباء من التفاوض مع الذين هم لابسون إسكيمك وليسوا مشاركيك فى السيرة بالتاؤريا وبالفكر الذى ينمو به الهذيذ (أى أنهم غرباء عن قصدك) ، وذلك لأنهم يعوقونك عن سيرك فتبرد حرارتك ، أما هم فلا يلامون لأنهم سائرون فى طريق أخرى إلى الملكوت فى هذا الشكل من الرهبنة ، ولأن تدبيرك مغاير لهم فإنهم يخيبونك من سيرتك .

(٤١) إذا ما فرزت نفسك للتوبة فكل يوم لايصادفك فيه محقرة فلا تحسبه يوماً تاماً .

(٤٢) الذى يتهاون بالصلاة ويقول أن له باباً آخر للتوبة فهو مسكن للشياطين . والذى لايداوم قراءة الكتب فهو يسير فى التيه ، لأنه إذا أخطأ لايحس .

(٤٣) احذر من أن تكون جالساً وتفكر فى أخيك (بالسوء) ، فهذا يقلع جميع بنيان برج الفضيلة ولو كنت قد وصلت إلى حد الكمال ، لأن الهذيذ فى الأفكار

الرديئة يقسّى القلب . ولهذا فلنقبض حواسنا من الملاقاة ومصادفة (الآخرين) لكى نهدأ الحركات الداخلية ، ونتطهر أثماراً لله .

(٤٤) حسب انحلال طرق تدبيرنا هكذا تضطرم فينا أتون البطن ، فتطلب مآكل مختلفة .

(٤٥) إن من يجلس فى الوحدة والحبس والسكون - وبالأكثر الأخ المبتدئ - هو محتاج قبل كل شئ إلى هذه الثلاثة أمور : الغرض والقصد المستقيم ، خدمة الأوقات ، والمرشد ، إلى هذه الثلاثة مفتقر كل أخ بالضرورة .

(٤٦) أما القصد المستقيم فالمتوحد مضطر إليه ، لأن بدونه تكون جميع أعمال الفضيلة باطلة وليس له مكافأة (عنها) . والقصد المستقيم هو أنه من أجل الله ومن أجل محبته يسكن فى هدوء الحبس ، ولا ينتظر بفكره أن يأخذ جزاء عمله شيئاً من هذا العالم : لا نياحاً جسدياً ولا ربحاً بشرياً ولا رئاسة وتدبيراً ولا مديحاً أو مجداً أو كرامة ، بل يكون كل قصده وسيره أن يؤهل لحب ربنا يسوع الكامل ولنظرته بالروح . هذا هو القصد المستقيم الممدوح الذى هو مضطر أن يقتنيه المتوحد .

(٤٧) والمتوحد محتاج أيضاً إلى تكميل خدمة الأوقات

فى السكون ، لأنها تحفظه من أذية الشياطين أعدائه ، حسب قول الأب إشعياء : « لا تهمل خدمة أوقاتك لئلا تقع فى أيدى أعدائك ». وأيضاً لأنه منها وبها - أى خدمة الأوقات - تتقوى نفسه وينير عقله ، ويُعطَى له واجبه (أى أجرته) مثل الرزق والجوامك[1] لجند الملك ، كقول الأب مرقس : « إننا إذا أكملنا خدمتنا وحفظنا الوصايا أخذنا من الرب رزق واجبنا ».

(٤٨) ويحتاج أيضاً الأخ الحبيس إلى المرشد ليفتقده ويتكلم معه من الطاقة فى الأمور التى يحتاج إليها ، ويقدم له المشورات الصالحة عما ينبغى له أن يعمل ، لأن قتالين صعبين يواجهان المتوحد المبتدئ : أحدهما هو الضجر الصعب ، والآخر هو الغلوة (أى الحرارة) الشيطانية ، وهما ضد بعضهما - وفى هذين الأمرين هو مفتقر بالضرورة إلى أحد الشيوخ العارفين ، لكى إذا كان محزوناً بالضجر يعزيه ويسليه ، وإن أضلته الشياطين بحرارتهم (الكاذبة) يعلّمه ويعظه ويبكته .

(٤٩) ويجب أيضاً على الأخ المتوحد فى الحبس ألا يتكلم مع إنسان كل أيام حبسه ، لأنه إن لم يقبض الراهب حواس جسده ، وبالأكثر النظر والسمع واللسان ، فإنه لن يجد سكون نفسه ، لأن الذهن ما يَسلم من دون

[1] مرتبات خدام الله.

الجسد. وقد قال الأب مرقس: "إن المتوحد الذى يترك قلايته وسكونه وتوحده، ويخرج بانحلال فى كل وقت يريد، لكى يأكل ويشرب ويتحدث مع كثيرين، فهو إن كان مع واحد ينبغى أن يُدعى ثانياً، وإن كان مع اثنين ينبغى أن يُدعى ثالثاً، وإن كان مع كثيرين ينبغى أن يُدعى كثيراً (وليس متوحداً)".

(٥٠) جميع الآباء الذين أحبوا السكون والحبس الكامل لم يعتنوا بحب القريب لكى يكلموه بانحلال ذواتهم. وما كانوا يستحون من الفرار من ملاقاة الوجوه الذين يظن أنهم أجلاء. أنبا أرسانى ما كان يرى أن يلاقى إنساناً، وأنبا تادرس إن صادف أحداً كان مثل السيف فى ملاقاته، وإذا عرض أن وُجد خارج قلايته ما كان يسلم على أحد. كما أن القديس أرسانى ما كان يسلم ولا على الذى كان يمضى ليزوره، لأنه قيل له من الصوت الإلهى: "اهرب من الناس فتحيا".

(٥١) إن اتفق لك سكون جيد، ولا تريد أن تخرج من قلايتك ولا أن تتناول من الأسرار المحيية، فعليك أن تجوز ليلة الأحد ونهاره كله (وأنت فى قلايتك) بأفكار متضعة وحزن، وافرز لك عملاً ما لأجل كرامة ذكر جسد الرب ودمه. وإن لم تقدر أن تعمل بالجسد

شيئاً يزيد على قانونك بسبب الضعف ، افرز بفكرك حزناً وندماً قائلاً : « إني خاطئ ومذنب ، والذي وقع في خطية يمنعه قانون البيعة من تناول الأسرار المقدسة وقتاً معلوماً لكي يرضى الله بالتوبة حسب مقدار خطيته » .

(٥١) فإن كنت ، يا أخي ، تحب تدبير السكون الجزئي أو الكلي ، ويستضئ ضميرك ، وتدق (أي تعمق) حركات نفسك بحذق لكي تتفرس في حركات الآلام المختلجة فيك من تذكار خطاياك القديمة ، وحسب قول الأب إشعياء ، ترصد ما يأتي بمجاذبات الآلام التي هي أفكار شيطانية ، هذه التي ليس لها عليك سلطان سوى أن تذكرك بالخطية فقط وتخضعك بمجاذباتها للتنازل معها ، أعني مع سماجة الشهوة ، بذكر امرأة ، أو تذكر أخ قد أحزنك ، مع ما تبقى من ذكر الآلام . فعليك أن تتعلم القتال والمجاهدة معها ، لأنه ليس في جميع المعارف ما هو أفضل من أن يعرف الإنسان ويخبر آلامه (أي يدرك حقيقتها) ويقاتلها ويستعبدها إلى سيادة إرادته . فمن هذا الجهاد يقتني الإنسان سريعاً طهارة القلب وينظر الله .

(٥٢) كل وقت تحصل لك فيه مفاوضة مع متوحد عمّال عارف ، تكلم معه بغير شبع عن نقاوة القلب التي منها

وبها وعد سيدنا أن يعاين الإنسان الله كقوله : « طوبى للنقية قلوبهم لأنهم ينظرون الله » . فإن كنت بالحق تحب الله ، لكن اشتياقك لنقاوة القلب أكثر من كل شئ . وإليها صوّب كل قصدك وغرضك وسيرتك ، واسأل واقرأ وتعلّم ماهى نقاوة القلب ومن أى شئ تقتنى .

(٥٤) فلتكن لك هذه العلامة فى كل درجة ابتدائك : أن تميز وتعرف أنك عندما تكون متيقظاً ومحترساً فى خدمة الأوقات (أى صلوات المزامير) وحفظ قوانين السكون . فإنك لاتطيش كثيراً . أما عن تحريك الأفكار الردية فاعلم بالحقيقة أنها ليست أفكارك ، بل مجاذبات الشياطين ، لأن الأفكار الأليمة التى من العادات القديمة لاتتحرك فى الإنسان مادام متيقظاً ونيراً وحريصاً فى عمله الروحانى ، وإن تحركت فهى سريعاً تضمحل بسبب يقظة وحرص عمله وبغضته لها . أما مجاذبات الشياطين فمادام الإنسان عقله متيقظ ومضئ ومحترس فى عمل البر ، وبالأكثر فى خدمة المزامير وصلاة أبانا الذى فى السموات وكلام التلاوة الذى يرتبه الإنسان من عنده ويصلى به بغير فتور إن أكل أو شرب أو نام أو مشى ، فإن هذه الأعمال وهذه اليقظة وهذه الصلوات بالأكثر تحرك الشياطين بالحسد مقابله ، لأنهم يخافون أن يقتنى منها سلاحاً ضدهم . ولهذا فهم

على الدوام يحركون فيه مجاذباتهم وأفكارهم ، لعله يخجل ويرتخي من الأعمال ويمل من تدبيره .

(٥٥) لأن خدمة المزامير وصلاة أبانا الذي في السموات وصلاة التلاوة التي يرتبها الإنسان من ذاته ، ويمجد بها الله من أجل عظم مجده ، ويعترف بها بالخيرات التي أعطانا إياها ووعدنا بها ، وبها (أي بتلك الصلوات) يتضرع ويطلب الرحمة والشفاء والخلاص - هذه الثلاثة أنواع من الصلاة تكون للشياطين كمثل السهام المتقدة المسمومة فتقتلهم وتستأصلهم .

(٥٦) وإذا ما طمشتَ بأفكارك وأنت في السكون ، ثم تهاونت بتكميل خدمة المزامير وقوانينك ، فإن أفكار آلامك أنت هي التي تنمو بالأكثر داخل قلبك وتضغطك أزيد من مجاذبات الشياطين .

(٥٧) ومع معرفة الآلام هذه ، والجهاد مقابل مجاذبات الشياطين ، والاعتناء بنقاوة القلب ونقاء الضمير وصفاء النفس ، تعلم أيضاً ، بشوق زائد ومحبة وأعمال مفروزة بالعقل ، أن تقتني حقاً الصلوات التي بغير فتور ولا طياشة . لأن كل تدبير العقل حسب شريعة السكون هو محدود ، كما قلنا ، بهذه الصلوات . فبالصلاة التي بلا فتور وهدم الأفكار ، إذ لا يتلذذ الإنسان

على الإطلاق بإرادته فى شئ من دغدغات الخطية بالتنازل مع الأفكار ماخلا مايكون من غصب وضغط صعوبة القتال ، بل يقتنى بغضة كثيرة لهذه الأفكار . فهذه الصلاة التى بلا فتور مع هدم الأفكار يحلو للإنسان تدبير السكوت .

(٥٨) إن كنت ماتتعب جسدك وتفنى نفسك فى كل حين وفى كل شئ وكل موضع وبكل فعل ، ولو أن فكرك قد يطيش من أجل ترتيب امتدانك ، فلن تُعطَى لك الصلاة التى بلا فتور . وإن لم تستيقظ نفسك فى هدم أفكار الآلام والشياطين ، فلن يجود الله عليك بجمع العقل والانقباض من لياشة الأفكار .

(٥٩) إن هاتين الفضيلتين : أى الصلاة بلا فتور ونقاوة الأفكار ، محدود بهما ومحصور فيهما جميع سيرة العقل . وهما مرتبطتان الواحدة مع الأخرى ومُركبتان ومتحدتان معاً . وكما أن لجميع الجسد شئ ولطبيعة النفس شئ آخر ، وباتحادهما ببعض يكونان إنساناً واحداً ، ومن غير اتحادهما وشركتهما معاً لا يكمل لهما فعل ، هكذا أيضاً فالصلاة شئ ونقاوة الأفكار شئ آخر ولأجل شركتهما واتحادهما معاً يُقام منهما تدبير سيرة واحدة تسمى من الآباء سيرة العقل ،

وكل واحدة منهما مفتقرة إلى تكميل الأخرى حسب قول القديس مرقس: «إن النية الصالحة بالصلاة توجد، والصلاة بالنية الطاهرة توجد، وكل واحدة منهما محتاجة إلى رفيقتها كمثل الطبيعة».

Жены Мироносицы

اليـم الثـالث

دلائـل توضيح بعض الأمور

(١) إذا كنت فى سكون مع عمل الاتضاع الجيد، فهذه هى العلامة على أن نفسك قد دنت أن تخرج من الظلام : أن قلبك يحترق ويشتعل كما بنار ليلاً ونهاراً، وتصير جميع الأمور الأرضية عندك كمثل الزبل، ولا يحلو لك أن تدنو من الغذاء بسبب لذة الأفكار الجديدة الحارة التى تتحرك فى نفسك على الدوام، ويُعطى لك من السكون ينبوع دموع بلا تعصّب، فتختلط الدموع بجميع أعمالك، أعنى مع قراءتك ومع صلاتك ومع خدمتك ومع هذيذك ومع أكلك وشربك، ومع جميع ما تصنع تمتزج به الدموع. فإذا ما نظرت هذا فى نفسك ثق وتشجع .

فى طريق الوحدة ومداومة القلاية

(٢) للمتوحد يمكنه أن يحفظ طريق الوحدة بحلاوة. وذلك بتكميل قوانين الوحدة . أما إذا رفض قوانين الوحدة وتهاون بها، فإن أفكار العلمانيين تحدث له بسياسة (أو بالضرورة) فى القلاية من غير أن يشاء . ولا أعنى بقولى هذا أن الضعفاء يؤذيهم السكون بدون عمل قوانينه،

بل أعنى أن الذى جسده صحيح وقوى، إن تهاون بتكميل قوانين العمل (لا يؤذيه السكون فحسب، لكنه) لايقدر أيضاً ولا على الثبات فى القلاية على الدوام. ومن الملاقاة الشهوانية التى يصادفها على الدوام ينسى (قصده) قليلاً قليلاً، وبسبب مداومة نظر العلمانيين وأشكالهم المنحلة، ينسى أيضاً الوعد المقدس. كذلك إذا كان مشتغلاً (فى قلايته) بعمل صنعة ما، ويتعطل (لهذا السبب) عن الدوران والطياشة، ومع ذلك لا يحفظ قوانين الوحدة، فإن أفكار الحيوان تكون له وتتحرك فيه وليس أفكار الحبس، ويتوه عنه أنها قلاية بل ركان حانوت. ومن ههنا تتحرك فيه حركات العلمانيين وليس البتوليين والمتجردين وحافظى العقل بالصلاة. فليست القلاية هى التى تحرس العفيف وتحفظه، بل قوانين العفة، وبالأكثر (بالنسبة) للجسد غير المروض والمزاج الشَغِب الذى يثب دوماً تبع الشهوة.

فى إيضاح القوانين التى تجب على السكان فى الهدوء

(١) قوانين الوحدة التى تحفظ لمريق السكون باحتراس وصيانة هى: تكميل خدمة الأوقات، القراءة المفروزة. ضرب المطانيات المحددة، الصوم إلى العشاء عدا وقت

المرض ، تصرف حسن محترس يتدبر به الإنسان مع نفسه داخل قلايته فى ترتيب أعضائه ، ألا يكون له خروج ودخول على الدوام بانحلال دون أمر ضرورى ، وأن لا تكون قلايته مزاراً للكثيرين . هذه هى قوانين الوحدة ، وهى محدودة بقياس (أى بدقة) ، وليس فيها تعب كثير ، وهى التى تحفظ المتوحد من العثرات والسقوط بمعونة الله .

(٤) وكما أن الله يقدر أن يحفظنا فى هذه الحياة بدون الأكل والشرب فى العالم المزمع ، ولكنه ما رأى أن يفعل ذلك فى هذا العالم ، بل بمواد كثيرة يمنح لنا الحياة ، هكذا هو أيضاً قادر أن يقيمنا بدون تعبنا وهمتنا فوق كل حركة فاسدة وبضمير روحانى لا يفكر فى شئ خارجاً عن الله ، ولكنه ما رأى أن يفعل ذلك لأجل تعليمنا وتخريجنا .

(٥) القلاية هى كنز الأفهام وبلد التاؤريا وماوى المعرفة ومكان الفرح ، وكور التجارب ، ورجوع النفس ونوم الخطية ، ومذكرة بالموت على الدوام ، وفيها تتيقظ فى العقل جميع التاؤريات حسب مقدار منزلة الإنسان . ويمتد سريعاً إلى الأمور العظيمة .

(٦) بنوعين يصنع الجسد نياحه (أى راحته) بمساقة فيسبب للنفس أتعاباً ومشقات وروامين (أو تصورات) عظيمة للفكر وهما : عدم ضبط البطن بالخضوع لتجلد الصوم، وعدم ترتيب الأعضاء التى تعطى دالة للنظر واللمس غير المتعفف الذى يحدث منه فساد هيكل الله بواسطة الأفكار الطائشة فى الأباطيل. لأنه بالجلوس المتعفف وحسن ترتيب الأعضاء ينبغى أن يتيقظ الإنسان بذاته ويتصرفه داخل قلايته فى الوحدة بحياء وترتيب. فإن أمكن لباسك الجوانى لا تخلعه أبداً، حتى لو كنت شيخاً طالما أنك لم تعبر بعد من هذا القتال. ولا تكشف رجليك من الثياب إن أمكن من غير ضرورة أكيدة وتظهر علامة ورائحة الشغب فى ذاتك، أو تنخدع لأجل نياح قليل بجسدك، لئلا يثب عليك نياح ثانٍ الذى هو نجاسة الأعضاء. وحتى لو كنت شيخاً لا تطمئن وتتهاون فى حفظ الأعضاء. كما لو كان لا فائدة فيها، لأن سبب الانحلال الثانى (أى النجاسة) يكون من الانحلال الأول (أى راحة الجسد)، وهذا يحدث من عدم التعفف من ترتيب الأعضاء.

(٧) الذى يتضيق فى نفسه وفى قلبه من أجل الخوف ومحبة العفة، ويفرح بالصبر على الصوم، ويأكل بقانون، لا ينخدع لانحلال الحواس ولا يهمل أبداً ترتيب نظام

الصوم، ومن هذه يضبط ذاته من أن يصنع دالّة جاهلة مع نفسه. والذى يحترس فيما يخصه (داخل قلايته)، ويقتنى عوائد جيدة باحتراس متعفف بجسده وجميع أعضائه. ويكرم الله بنفسه وجسده، معروف أيضاً أنه إذا اتفق وجوده خارج قلايته، فإن ذلك التحفظ يرتسم على أعضائه جميعها بحياء نظره قبالة كل عارض يصادفه، ويقتنى تلك الصيانة أيضاً بسائر حواسه بسبب تأسس العادة التى اقتناها لنفسه فى الخفاء داخل قلايته. فإنه من الكلام المنحلّ والدالّة مع الآخرين الذى يعتاد عليه وهو فى قلايته، واغفاله مع نفسه إذا كان وحده، معروف أيضاً أنه يقتنى تلك العادات وينفعل بها وهو خارج قلايته؛ لأن حُسْن نظام العوائد داخل القلاية يُعلّمه الحفظ خارجها. فالذى يتدبر فى قلايته حسناً لا يمكن أن لا تظهر فيه وهو خارجها تلك الأنواع الحسنة، لأن خارج الإنسان هو مرآة ودليل على خفاياه.

فى الأعمال التى يتدبّر بها إذا كان فى السكون

(٨) الصمت الدائم هو زينة وبهاء المتوحد. لأنه نقص فى حق المتوحد أن يكون مفتقراً إلى الاحتراس فيما ينبغى أن يكون له فى السكون، مع الانضاع الدائم.

فإن انحلال تصرفه البرّانى هو دليل على انحلال القلب الخفى . والمنحلّ بحواسه هو أيضاً منحلّ بقلبه، والمنحلّ بقلبه منحلّ أيضاً بحواسه . والذى هو هكذا منحلّ من الداخل ومن الخارج لا يمكن أن يكون له اهتمام بالله ، ولا بهذيذ تدبير السيرة ؛ لأن التدبير البرّانى يصون الجوّانى ، والتدبير الجوّانى صيانة للبرّانى .

(٩) العمل الأول فى الفضيلة هو السكون . والعمل الأوّل فى السكون هو الصوم ، لأن الصوم يصلح كثيراً لعمل الله . فالسكون هو نقص (أى إبطال) حواسنا من العالم ، أما الصوم فهو دليل الفعولية (أى العمل) مع الله ، ودليل الاستعداد للقتال والمجهود بالعالم . والعمل الثانى فى السكون هو الصلاة . لأنه إذا كفر الإنسان بالعالم يحصل فى المفاوضة النقية مع الله ، التى هى الصلاة . فالصلاة هى طيران عقلنا إلى الله ، حسب قول القديس باسيليوس . فلنداوم على الصلاة بإفراز لكى يقتنى عقلنا حياءً وتعففاً من النظر الدائم فى الله والكلام الهادئ معه .

(١٠) لا نقدر أن نقتنى قلباً متعففاً طالما كانت الحواس تداوم الطياشة فى أشياء كثيرة ، وفى كثيرين . فالسكون يصلح جداً لعمل الله ، ولهذا فإن القديسين قبضوا

حواسهم أولاً من العالم، وبعد ذلك اهتموا باستعداد القلب بعمل الله الخفي. لأنه إن لم يرتبط الجسد أولاً بعمل الفضيلة لا يتفاوض الفكر بفلاحة الفضيلة. فالجسد المتفرد (في السكون) يصلح كثيراً لعمل الفضيلة، لأنه من السكون يقتني ذهناً مجموعاً وضميراً هادئاً وأفكاراً غير مضطربة بمناظر العالم. فلنحب النوم الهادئ في السكون لأن خيالات أحلامه أنفع من أفكار اليقظة التي تكون خارجاً عن السكون. ولنحب الوحدة لكي نقتني منها ضميراً متوحداً متحد بسر الوحيد الذي من حضن الآب. ولنحب الأمراض التي من العدم (أي العوز) لكي نؤهل بها للعزاء الحلو الذي يصنعه الله معنا.

(١١) إن أعمال الوحدة المتعبة التي ينبغي للجسد القوي الصحيح والنفس الشجاعة تكميلها، وما يقدر الجسد الضعيف المنحط أن يكملها، هي شئ، بينما تلك الأعمال التي تحتاج فقط إلى يقظة واهتمام هي شئ آخر. فهي لا تحتاج إلى قوة الجسد لتكميلها بل استعداد الإرادة. فإذا لم نقدر أن نسهر الليل كله مثل كثيرين ممن يقومون على أقدامهم من العشاء إلى باكر بلا نوم، ونخدم مراميت كثيرة في كل وقت من النهار، وصلوات متواترة مع ضرب مطانيات كثيرة،

وصوم أيام وَلى (أى جوع) ، فيمكن لمن كان ضعيف الجسد أن لاينام من العشاء ، وأن يخدم أيضاً قليل مزامير وقت الستار ثم ينام ، وأن يغصب نفسه فى الليل - إذا لم يكن مريضاً - ويكمل قليلاً من الخدمة ، وإن لم يمكنه الوقوف ، فيستطيع ذلك وهو جالس . وإذا لم يقدر أن يخدم سبع مزامير فى كل وقت من النهار مثل الأقوياء ، فعلى كل حال يقدر أن يخدم ولو مزمور أو مزمور واحد فى كل وقت ولا يعبوها بإهمال ولا يبطل شيئاً من السبعة أوقات . وأن يصوم إلى العشاء مثل الضعفاء أو إلى التاسعة أو لنصف النهار ، ولا يأكل من باكر . وهذا الحفظ والاحتراس لا يحتاج إلى قوة جسدية . كذلك إذا لم يقدر الضعيف على الحبس الضيق مثل الأقوياء ، ولا حبس الأسبوع كله مثل المتوسطين ، فعليه ألا يفتح بابه كل يوم ويمضى إلى أخيه ويركب له الأسباب أو يطيش خارج قلايته . وهذا جميعه يقدر أن يعمله ضعيف الجسم . وأيضاً يجب عليه أن يتصرف فى قلايته بحسن نظام ، فلا يخلع عنه ثيابه ويتعرى ويبعد عنه الحياء والعفة ، بل يتقلب (أى يتدبر) بخوف واستحياء من الله . ولا يهتم بغسل وتنظيف جسده ويديه ورجليه ، ولا بتسريح شعر ذقنه وترتيبه ولا بتنظيف ثيابه ، لكن يعتنى أن يجلب على نفسه قتالاً على قتال .

وكالزانية التى تهتم بالشهرة .

(١٢) ويقدر الضعيف أن يقتنى يقظة الفكر ، لأنه حيث توجد مخافة الله فهناك توجد الصلاة الطاهرة التى بغير لمياشة ، وهى تشجع الإنسان وتُعدّه للصوم الكثير الذى يفوق الطبيعة . فمع مخافة الله ولو سكن الإنسان فى النواويس (أى المقابر) والمغاير الضيقة جميع أيام حياته فإنه لا يتضجر . لأنه حيث لا توجد المخافة فلا توجد التوبة أيضاً . وحيث تكون مخافة الله لا يكون ذلك الإنسان محتاجاً إلى الوعظ أو الاحتراس الكثير .

(١٣) كل صلاح فى النفس يظهر فيه إشراق الفضيلة إما من الإرادة أو من الطبع . والذى من الإرادة هو من غصبية خوف الله (الذى يحرك) إفراز الإرادة . أما الذى من الطبع فهو من خاصية الطبيعة . وحيث لا يوجد هذان الأمران أو أحدهما ، أى أن يكون الإنسان مُعاناً من طبيعته أو أن يكون فيه خوف الله الذى يحرك إفرازات الإرادة ، فإنه لن يخلو من شئ من الشرور . لأن كل صلاح يتحرك بالعقل فى الطبيعة الناطقة ، يتحرك القلب به من الله أولاً ، ومنه يقوى على الثبات فى الصلاح بالفكر الذى ينتبه فى القلب بحرارة ، وبعد ذلك تُعين حركة الصلاح التى فى الطبيعة اهتمام الإرادة الحرة .

(١٤) تحكّم مقابل أسباب الآلام، فتهدأ عنك الآلام من ذاتها، لأن أفكار النهار هي مرآة للحركات في نومك. المزامير والصلوات تصلح عند النوم أكثر من كل مفاوضة نفسانية، وتنفع أكثر من التذكارات التي من الكتب في هذا الوقت (أي عند النوم)، لأنها (أي المزامير والصلوات) تضطر الأفكار أن تشخص في الله متواتراً، وتمسك النفس بتلاوتها الليل كله إلى أن ينتبه (الإنسان).

(١٥) وإن كان الفكر ينجمع من القراءة، لكنه ما يقتني عفة وحياء، وينقى، إلا من الصلاة. فالقراءة تجعل الإنسان الخفي جبلة جديدة، ومن الصلاة تنفخ فيه روح الحياة، وتلهب العقل حرارة إلهية كل حين ليطير من الأرضيات، ويحل في مسكن الحياة.

(١٦) من القراءة ينجمع العقل، ومن الصلاة يتردى بالحزن، ويقتني شعاعاً سماوياً، لأن الحياء يلبس الجميع حركاته إذا ما تكلم مع الله. ومن مداومة الصلاة ينمو ويتوفر فيه الحياء والحشمة من الله. ومن دوام الشخوص ولقاء الله في الصلاة تخاف الآلام من الدنو إليه كيفما اتفق.

(١٧) الهذيذ فى الكتب الإلهية يُكثر نمو النطقية فى النفس إلى الله ، ويُغيّر غرض الفكر حسب لمريق (أى نوع) القراءة . فينبغى لك قراءة الكتب التى تُكثر (الحديث) فى الاحتراس والتحريض على تقويم السيرة ، التى فيها تأورية الحلاوة بالله ، أو أنكار الدهش به .

(١٨) تغير الكلام فى معنى الفضيلة يجدد كل ساعة شهوة الفضيلة فى النفس . فهناك قراءة تعلمك ماذا تصنع ، وهناك قراءة تشعل النفس بذكر حلاوة الفضيلة وتضع مذاقة شعمها بالكلام الحلو فى مذاقة الإنسان العقلية .

(١٩) كن مداوماً على الهذيذ فى الكتب وسير القديسين ، لأنه من التذكار والنظر الدائم فى الكتب وفى لمرق سير الآباء تكثر فى قلبك أفكار حارة مع عدم ضجر ، وتجعل أعمال مخافة الله سهلة أمام عينيك ، والضيقات والوحدة هيّنه . وحسب ما يُهمَل الهذيذ بالصلاح بعينيك ، هكذا تبطل الشهوة إليه ، لأنه بمقدار غذاء النفس صالحاً كان أم رديئاً ، هكذا يتغير حسن مزاجها إما لصحة الحركات وإما لمرضها .

(٢٠) ويتقوى الضمير جداً بسماع الأقوال النافعة ، وبنظر الفكر فى أعمال القديسين واختلاف لمرقهم وقفر

مساكنهم ومواضعهم الهادئة . وكما أن اختلاف تذكارات المدن يكدر النفس ، كذلك فإن ذكر مواضع القديسين يثير فيها حرارة ويمنحها فرحاً ، ويملأها أفكاراً نافعة .

(٢١) كما أن من القدح الكثير يخرج شرار النار، هكذا أيضاً من الهذيذ الدائم فى الإلهيات تكثر الحرارة. وقد قال بولس الرسول : « لا تطفئوا الروح » ، فبماذا تنطفئ الروح إلا بالاهتمام الزائد بالجسدانيات ، وإهمال الهذيذ فى أمور الله ، وبالاستماع الدائم للكلام الفارغ، إذ نترك مفاوضة سِيَر الكاملين وكلامهم الصحيح الذى يغذى النفس ويحرضها على تدبير السيرة ، ونجالس أناساً منحلين متكلمين بأشياء باطلة فارغة تطفئ الحرارة . وليس فيها شئ ينفع النفس . ضع هذا دائماً فى ضميرك كلما نظرت الحرارة قد نقصت من قلبك وأنت تدرك السبب .

(٢٢) وإذا ما قرأت الكتب (المقدسة) وانجمع ذهنك من الطياشة ، ارجع إلى الصلاة لأن بها يتطهر العقل بالأكثر. لأنه ليس شئ ينقى الضمير مثل مداومة الصلاة. وليس شئ يمنحه حياء وخشمة مثل المفاوضة مع الله بالكلام. حتى لو كان الإنسان مرحاً جداً ، فإنه إذا ما قام فى الصلاة بحياء وخشمة ، ينظر فى الله .

(٢٣) إذا مل الضمير من كثرة الهذيذ فى المزامير والصلوات، ويعرض له هذا بكثرة، وابتدأ يتحيل الأسباب لكى يطمح فى الطياشة، فعليك أن تصطاده بحيلة حكيمة مثل الحمامة الوديعة بلفظ لذيذ. وإذا نظرته وقد مل بهذه، وأردت أن تربطه بمفاوضة ما مخفى فيها نوع من الصلاة، وبالأكثر عند النوم، فاشغله بألحان معانيت وقوانين حلوة ذات لحن محزن تحرك ندامة النفس، وتجد فيها كلام تشجيع وتعزية وفرحا وأفهاما فى سياسة الله. فبهذه الألحان (يتأثر) الجسد الذى هو شريك النفس ويسكب الدموع، حتى يأخذك النوم وذهنك غاطس فى مثل هذه الأشياء، فيكون نومك حلواً خالصاً من كل حركة جسدية.

(٢٤) وفى الخدمة أيضاً، إذا ما قام اضطراب الأفكار على الإنسان بقوة ففى تلك الألحان كفاية لتبطلها وتجمع الفكر داخل بلدته بغير تعب. بحريتك اصنع هذا إذا ما تجربت من سجس الأفكار: اترك المزامير (قليلاً) واشتغل بالألحان. ولا أقول لك أن تفعل هذا فى كل وقت، أى أن تترك المفاوضة النافعة وتشرح ضميرك بالألحان، بل وقت الضرورة فقط، ولا تخجل من أن تربح بأشياء حقيرة معونة نافعة فى وقت الحاجة.

(١) أجزاء من التسبحة ومرثيات القداس والمدائح.

(٥٥) اعلم يا ابنى أن السكون ، أعنى الوحدة ، وكل التدابير تعطى أثمارها بحسب المدة والمفاوضة بها . فالسكون وعمل القلاية على قدر المداومة وحفظ العقل يعطى ثمره. فإن كنت خالياً من المداومة ومساواتها بالعمل لا تنتظر أن يحصل لك منها عزاء حقيقى . فكل تدبير بغير قيام ولا دوام مدة تجده أيضاً بغير أثمار ، ويكون كأنك قد بدأت به بداية فقط . أما العمل الدائم ولو أنه قليل ، فلأجل دوامه يربى كنوزاً عظيمة .

(٥٦) وأنا أدلك فى هذا المعنى على شئ يليق بالضعفاء ، وبه يتقدم الإنسان بسهولة ، والحلاوة المتولدة منه بعد قليل فيها الكفاية لأن تجذب الضمير إلى المداومة. فإذا كنت ضعيفاً ومللت من القيام على قدميك ، ومن تكميل الملمانيات المعتادة ، وكم من وقت تتعلل أيضاً من الصلوات الدائمة التى تكمل بالجسد ، تلك التى منها تتولد الصلوات القلبية ، خُرّ على وجهك دفعات كثيرة وأنت جالس والكتاب بيديك ، واثبت فى التضرع ، لكى تمتزج مفاوضة القراءة مع الصلاة ، وتحلو لك الصلاة لأجل القراءة ، وتستضئ أيضاً فى القراءة بمفتاح الصلاة ، فليكن لك هذا القانون كل أيام حياتك فى كل موضع وكل مكان تنجمع فيه إلى ذاتك ، وليس فى حقارتى كفاية أن أنعت لك ما يتولد من

هذا بربوات سطور .

(٢٧) نحن نمارس الأعمال والاحتراس مع أنفسنا لأجل الخوف ، لأننا نعرف أن الراحة الجسدية تبعدنا عن الله ، وتخيّب ضميرنا من الهمّ به . كما أننا نتهاون أيضاً بالمفاوضة مع إخوتنا ، وذلك ليس لاستخفاف أو ازدراء بهم ، ولا لأنهم ليسوا أفضل منا - إذ أننا فى كل وقت نستعين بصلواتهم - بل لئلا نعدم التنعم مع سيدنا بسبب المداومة مع الناس . لأن الوحدة تجعلنا نتحد بالله ، وهى تشركنا بالعقل الإلهى ، وتوصلنا إلى نقاوة الضمير فى زمن قليل بغير تعويق . فكل موضع تكون فيه صِرْ متوحداً منفرداً بضميرك ، وغريباً وخاطئاً . ولا تظن أن كل التدبير والعمل فى السكوت يتوازن مع أن يكون الإنسان غير معروف ولا محسوب ، وبعيد عن كل أمر وكل شئ ، لأن البعد إنما يكون حدوثه من أن يكون الإنسان غير معروف ، وهو بهذا يتربى ويُحفظ .

(٢٨) تناه عن كثيرين وما يفهمون أننا نحن المتوحدين لا نحبس أنفسنا داخل الباب لأجل عمل الفضائل ، إذ أننا حتى ومن الفضائل نكون موتى ، لأن الفضائل إنما يصنعها الأحياء الذين يعملون فى وسط كثيرين ، فإن

كنا نحن نطلب عمل الفضائل وإخوتنا الذين فى المجمع يطلبون أيضاً عمل تلك الفضائل عينها، فمالنا بالهرب وقبر القلاية ؟ بل إننا نحن نترجى أن نقتنى من السكون الشئ الذى إذا ما تعلّقنا بجفون أعيننا ما نناله بين كثيرين، وحيث لا يُستطاع اقتناؤه هناك .

(٢٩) بالحقيقة إن عمل مائة أخ يصومون ويصلون فى السجن والمفاوضة مايوازن عمل متوحدٍ واحد جالس فى السكون ولوكان ضعيفاً ، بشرط أن يكون عادماً من الخلطة ومفاوضة الناس ، ومتجلداً داخل الباب بغير انقطاع . وليس مَن يدخل عنده ولا يخرج لأن الذى هو فى الحبس والسكون ، ولم يقطع نفسه من كل تذكار واهتمام ويبتعد من كل مفاوضة ويداوم فى السكون باستقامة ومحبة الأعمال ، فهذا لا الخطاياه القديمة يذكر ولا لزلاته فى كل يوم ينظر، ولا لآلامه يعاين ، ولا لمجاذبات الشياطين يفهم، ولا للجهاد مع الآلام والشياطين يستعد ، ولا لنقاوة القلب يصل ، ولا الصلاة الروحانية يقتنى ، ولا حتى للصلاة الطاهرة يستحق ، ولا يشرق نور مجد المسيح الإلهى باستعلان الروح القدس داخل نفسه .

(٣٠) هذه المواهب والعطايا جميعها ما أُعطيت ولا تعطى

أبداً خارجاً عن الحبس والسكوت. أما الذين يحبون السكون ويحتملون جميع ضيقاته ويصبرون فإنهم ينالونها بلا نقص وإن كان فيهم مَن يخرج من هذا العالم وما ينال هذه المواهب لئلا يتكبر ويخسر، أو لأجل أمور أخرى مخفية عن معرفتنا، إلا أنه ما يخيب من العطايا الأولى (التي توصله إلى نقاوة القلب)، وفي العالم الجديد يتنعم بهذه العطايا (أي بنور مجد المسيح) في ملكوت السموات. ولهذا قلت إن السكون ينبغي أن يكون مكرماً عندنا أكثر من كل شيء. ومثلما قال العظيم في العارفين يوحنا التبايسي النبي: «إنه لا ينبغي أن نتدرّب في السكون بصوم وسهر بغير قياس، أو بضيقات كثيرة بغير ترتيب، بل أن نعتني بعمل العقل». فالسكون الدائم مع تدبير العقل لا يبطئ كثيراً من أن يبلغ الإنسان ويوصله إلى ميناء الحياة والفرح.

(٣١) فضيلتان تحبسان جميع الفضائل، ومنهما وبهما يُقام تدبير العقل جميعه، ومنهما يقتني الإنسان طهارة القلب، وهما اللتان يفتقر إليهما طقس سيرة السكون: الصلاة التي بغير طياشة ولا فتور، وهدم لمَمْ أفكار الآلام ومجاذبات الشياطين حالما تظهر وتحس بها وتتحرك في القلب. هاتان الفضيلتان وهذان العملان تُحد بهما وتُحبس كل أعمال الذهن وكل

فضائل النفس . وهما تدلان وتمنحان موهبتين إلهيتين ، وفيهما تنحصر جميع مواهب الروح ، ويصفهما الآب إشعياء بأنهما تفوقان الفضائل ، ولأجل ارتفاعهما عن الفضائل ، ولأنهما لا يُعملان بالجسد ، ولا يُفلحان بالنفس ، بل إنما يُنعم بهما إنعاماً بقوة الروح القدس من قبل أن يهتم العقل بما يفوق الفضائل . هاتان الموهبتان هما : حركة روحانية تحرك بلا فتور حركات النفس بغلوة الروح القدس بحب الله الكامل ، ونظرة نور مجد المسيح .

(٢٢) مُكرّم أيضاً ومحبوب هو تدبير السكون ليس عند الآباء المتوحدين فقط ، بل وعند معلمي البيعة الكبار أيضاً . وتعرف هذا مما قاله القديس باسيليوس ويوحنا ذهبي الفم إن الإخوة الحبساء لا يُسمون متوحدين وصديقين كاملين فقط ، بل وشهداء عظاماً . كذلك لما أراد القديس اغريغوريوس أن يُعرّف أخاه أنه بدون الصمت والسكون والحبس لا يُستطاع أن يتكمل (بإكليل البر) ، وقال : « إن سياجك إن تشاء هو بستان غنى الروح وموضع المصاف (أي الجهاد) الذي تُضفر فيه الأكاليل » . أعني أنه متلما تُجمع الأزهار بعناية داخل سياجات البساتين والجنينات لكي تُضفر منهما أكاليل ، هكذا أيضاً يمكنك أن تجمع أزاهير

الفضائل وتضفر منها أكاليل البر، إذا سكنت فى الهدوء. وأحاط بك سياج خارج قلايتك ، وداومت الأعمال المرضية لله . فهذا هو معنى قوله : «إن سياجك إن شئت هو غنى الروح ».

(٢٢) وقال أحد الآباء أيضاً : « إنى ما وجدت غبطة فى الفضائل كمثل أن يهدئ الإنسان ذاته من جميع الأعمال ويصمت عن كل مفاوضة وحديث ، وكمالها (يعنى الغبطة) هو مخفى عن معرفة الناطقين .

(٢٣) وفيلسوف آخر قال : « لا ينبغى للإنسان محب السكون أن يصمت ويهدأ فقط ، بل وليصنع جهاداً مع أفكاره ويقمع آلامه . وهكذا سريعاً يبلغ إلى نقاوة القلب ، ويكون مسكناً للحكمة ».

(٢٥) احتراس الجسد وإفراز الأفكار يُقنى الفكر عفة نقية . وحفظ الحواس وترتيب الأعضاء حسناً يُولد حياء واستحياء الأفكار وضميراً نقياً ، من غير جهاد . أما عدم الاحتراس والقرب من الناس والأمور فقد ولد للشيوخ الحمّالين الأعفّاء أفكار الشبان وأقامهم فى قتال الصبوة (أى الشهوة) . كما أن الطياشة وعدم الانقباض تصوّب (أو تسهّل) للإنسان سقوطاً على الدوام ، وإن لم ينهمك فى الشئ لعدم توفر سبب السقطة

فهي (أى الطياشة) تُقنيه عقلاً مضطرباً كل وقت، وتُبعد عنه هدوء القلب وسكونه.

(٢٦) كذلك ينبغى للمتوحد أن يكون له احتراس لا من الأفكار فقط، بل وبالأكثر من الأفعال. فيجب أن يحترس من الدّنو إلى جسد إنسان بالكلية لأى أمر من الأمور، وأن لا ينظر سرير علمانى، لئلا نُضيّع هذا الزمان الذى أُعطى لنا لفلاحة الحياة، وعند موتنا نطلب زماناً للتوبة.

(٢٧) الذى يحب السكون ينبغى له أن يهرب من كل محادثة، لأنه ليس شئ يرخى نشائم الضمير، ويكثر البرودة فى الفكر نحو الله، مثل الأحاديث الباطلة ودوام الكلام الفارغ والسّير الخَرِفة، فهذه تُبطل من النفس تماماً الاشتياق لله ومحبة سيرة الوحدة المقدسة. فاعْتَفِ من هذه (المحادثات الباطلة) بكل قوتك، وامضِ ونَم فى البطالة، أو طف باطلاً (أى بلا عمل) فى الجبل وأنت وحدك، ولا تذكر شيئاً سمعته منها، ولا تعوّد ذاتك القرب والدّنو من المعتادين بها (أى بهذه الأحاديث الباطلة)؛ وعند ذلك تعرف كم تنفع البطالة مع الوحدة أكثر من الاستماع للأمور الباطلة. لأن الإنسان إذا انقبض من

مفاوضة الناس ، رجع إلى ذاته وإلى تقويم سيرته حسناً قدام الله .

(٢٨) متوحد هادئ متواضع معترف بعجزه مع التخلف عن تكميل قوانين السيرة ، هو أفضل ممن يقوم بتكميلها بحياة منحلة وإطلاق اللسان وتسيُّب الحواس .

(٢٩) اهرب يا أخي ، من جميع أهوية قلبك التي تقيم عليك القتال - قال الأب إشعياء - ومعونة ربنا تقهر جميع أعدائك » . أعني بهذا أنك إذا ما جلست في السكون ، فلتعدك من الطياشة في الأفعال ، وانقيامك عن مفاوضة الناس ، ودوامك مع سيدك بعمل وصلاة ، تغار منك الشياطين وتجذبك للتنازل في رغرغات الشهوة لكي تخيّبك من حب ربنا ومن العزاء الروحاني ومن الأجر المحفوظ لك لأجل سكونك وأعمالك . فاصنع أنت هكذا متلما أقول لك : عندما تحرك الشياطين في قلبك أي فكر شهواني أو غضب أو مجد فارغ ، أو أي شيء من الآلام ، فلا توافق ذلك الفكر ولا تتنازل معهم ولا تتركهم يدخلون إلى قلبك ويلذذونه ، بل اذكر سريعاً تلك اللذة المعدة لك من سيدنا ، وانهر تلك اللذة الأليمة ، واغمض عيني فكرك عن النظر في الفكر الشيطاني ، واغصب نفسك - كلما جذبتك لذة

الخطية - أن تهرب منها، وانتقل بشهوتك لحب الله، والطلب أن يأتيك منه عونٌ ويعطيك أن تغلب. فإذا نظر الله إرادتك، أنك حتى ولا بالفكر تريد أن تتلذذ بالخطية من أجل التنعّم بمحبته، فإنه يشير إلى الملاك اللاصق بك فيطرد الشياطين المقاتلة معك بمجاذباتها كالغبار قدام الريح العاصف. وبعد مدة سنين معلومة، كثيرة أو قليلة، إذا ما اختُبرَتْ إرادتك الصالحة وحبك الصادق لسيدنا، بالصبر في جهادك ومصافك (أي وقوفك) مبالاة أعدائه، عند ذلك ليس فقط كل وقت تقاتلك فيه الشياطين يصرك بالمعونة لتغلب، بل إنه إذا ما انقضى زمان مجاهدتك بالكلية، يطرد عنك الشياطين ويمحق (أي يُبيد) انجذابها من قلبك، وعوض تلك الأفكار الرديئة الكثيرة المتحركة فيك وقت القتال يملأ نفسك أفهاماً روحانية كثيرة، حتى يبتهج ضميرك في كل وقت بالأفكار الإلهية، التي هي: الهمّ بعظمة الطبع الإلهي، الهذيذ بالتالوث المقدس، تذكار لا ينقطع على الدوام بالاشتياق لحب المسيح ونور مجده الإلهي الساكن فيه في السماء، الهذيذ بالطغمات الممجدة الملائكية، ذكر الفردوس وأرواح الأبرار الذين كملوا، استعلان مجد المسيح، صعود القديسين إلى السماء

وتتعلم مع سيدنا ، وأشياء أخرى مثل هذه .

الميمر الرابع[1]

فى معنى القتال الذى تصنعه الشياطين بالأفكار

إن الجهاد مع الأفكار الرديئة الذى يكون فى السكون يحدث بهذا المعنى : متى سكن الإنسان فى الهدوء والحبس إلى الموت ، فكل واحد حسب عمله وبمقدار اجتهاده وحرصه هكذا تتصعب عليه الحروب وتشتد مقابله يوماً بعد يوم ، ووقتاً بعد وقت كلما تقدم إلى قدام إلى أن يبلغ نقاوة القلب ، وقبل وصوله إليها بقليل تحدث عليه قتالات صعبة أكثر من العادة وتشتد عليه جداً . فإن تجلد المتوحد وثبت فى الحبس ولم يرتخ من الجهاد ، فهو يبدأ أن يجد راحة قليلاً قليلاً ، ويُعان على الدوام من النعمة . وفى كل وقت تدنو إليه الشياطين لتقاتل معه بمجازباتها النجسة ، فإنه حالما يدعو سيدنا يُعان سريعاً وتُطرد عنه الشياطين بفعل الروح القدس اللاصق به بالغمز الإلهى (أى بإشارة من الله) ، وبعد زمان قليل لا يُسمح للشياطين أن تعود لتقاتله بمجازباتها بل باللمس والنظر فقط من أجل نقاوة القلب وعدم التألم الذى قد اقتناه ، لأن عدم التألم لا يقبل حروباً ،

---

(١) التقسيم إلى ميامر غير موجود فى المخطوطات القديمة .

كما قال الأب إشعياء ، لأنه أخذ إكليله وابتعد من الهمّ. وعدم التألم هذا الذى تكلم عنه الآباء ليس هو ذاك الذى يكون بعد القيامة ، بل يعنون به صحة النفس وعافيتها من مرض وسقم الآلام الذى كانت فيه أولاً .

فى معنى الأفكار الرديئة التى تقاتل معنا بقلوبنا

(١) لا يمكن للآلام أن تدخل الضمير الذى فيه الهمّ بالله . لأن به فقط يكون محق الآلام واضمحلالها . أما البطالة والراحة فتتولد منها طياشة الأفكار ، ومن الطياشة تكون سلطة الأفكار على القلب ، وبالأكثر إذا اشتركت معها الحرارة المتحركة من الجسم بألم الدغدغات الصعبة والتنازل معها .

(٢) أما فضيلة العقل التامة فهى مداومة تذكار الله . وما هى مداومة ذكر الله عند القديسين ؟ هى طاعتهم له بحفظ وصاياه . فإذا كان هذا الرأى والعزم للإنسان ، كان الله موجوداً فى الضمير العمّال بهمّه . فإذا ملك فى نفسك الهذيذ بالله والهمّ به ، اعلم أنك قد قربت أن تستريح من الجهاد المتعب والحرب مع الآلام ، لأن المفاوضة بالله هى كمال الضمير .

(٤) كل أفكار تجذبك إلى السكون إعلم أنها تدعوك إلى العفة . وكل أفكار تجذبك إلى المفاوضة (معها) ، إعلم أنها تدعوك إلى النجس كمثل الطير إلى اللقط الذى على الفخ ، فهكذا هى أسباب الآلام . والمبتعد عن العالم هو الذى يبغض المفاوضة مع الأفكار ، ومع اهتمامات هذا العالم ، لأن الذى يحب الأفكار معلوم أيضاً أنه يحب العمل بها ، لأن مَن يبغض شيئاً لا يُقاتَل به بضميره ، كما أنه لا يكون مفتقراً لشئ يغصب به نفسه لكى يبتعد عنه ، لأن مَن يبغض إنساناً فإنه لا يحب أيضاً أن يلاقيه . فإن كان هناك أمر من الأمور نبغضه ، ومع ذلك يتعبنا الفكر به ويقاتل معنا ، فمعلوم أننا وإن كنا لا نحبه هو إلا أننا نحب أسبابه . أما إن كنا لا نحب أسبابه فهو يكون فكراً ساذجاً ليس له قوة أن يقاتلنا .

(٥) فإذا ما أراد الشيطان أن يدلس العقل النقى بأفكار الزنا ، فهو أولاً يمتحنه بالمجد الفارغ ، لأن هذا الفكر لا يُظن به أولاً أنه ألم . وبهذا المعنى يخضع الضمير المتحفظ ، لأن الشيطان لا يقدر أن يلقى فيه (أى فى العقل النقى) من البداية فكراً سمجاً

عارياً، لكنه إذا أخرجه من حصنه بمعنى ضمير هذه الأفكار، فإنه بعد ذلك يلاقيه بمادة الزنا. ثم يعبر العقل على أمور كثيرة من السماجة والشغب، فينزع في البداية بملاقاتها من أجل عفته واستحيائه من الأشياء التي يصادفها وقد كان متنسكاً عنها، ولو أنه لم يتنجس ضميره، إلا أنه يكون قد أسقطه من علوه. فإن لم يرجع ويدرك الأفكار الأولى بحدّة ويهدمها، فإنه بملاقاته هذه الأشياء دفعات كثيرة، تعمى العادة إفراز النفس لأجل دوامها. وإذا ما خرجت الآلام من بلدها وأظهرت نفسها في القتال، عند ذلك ترتسم الصور والأشكال في الضمير، وتصير كتمثال اقتنى قوة عظيمة على العقل، ويتنجس الضمير جداً ويكدّره.

(٦) هنالك أفكار جيدة وإرادة صالحة. وهناك أفكار سمجة وإرادة سمجة، والأولى من غير الثانية (أي الأفكار بنوعيها من غير الإرادة بنوعيها) للجزاء عنها قليل. أما الأفكار فهي حركات تجوز في البحر فترتفع أمواجه، وأما الإرادة (بنوعيها) فهي الأصل، وبحسب ضبط الأصل والأساس تكون المكافأة إن كان جيداً أم رديئاً وليس بحسب حركة الأفكار، لأن النفس ما تهدأ من حركة الأفكار المختلفة، فإن كان ليس لها أساس وأصل عميق (أي بالإرادة)، فما أقربك كل يوم أن تغير صالحك ورديئك ألف دفعة.

(٧) إذا ما ظهرت لك أثناء النوم أحلام رديئة بطياشة الشهوات، فاعتنِ أن تنقي ضميرك بالدموع، وامنع عن جسدك كثرة الغذاء لكي ينسحق ويتضع. وقد قال القديس أوغريس: «إن شيطان الزنى يهرب من قمع الجسد وإذلاله بالصوم وبالأعمال الأخرى».

(٨) الإنسان الصائم يغصب نفسه أن يتشبه بطبع الروحانيين. والإنسان المداوم في عمل الله بخفايا يُقوّز من سكوته وصومه. لأنه بهذه الأسرار أيضاً تُكمّل القوات غير المنظورة خدمة تقديس الأزلية سيدة العوالم.

(٩) كما أنه من عرق الصوم ينمو سنبل العفة، هكذا من الشبع يتولد الفسق، ومن الامتلاء النجاسة. فالبطن الجائعة لا تقوى عليها أفكار السماجة. فاعترف بعجزك واستعن بالبساطة لكي تحيا قدام الله حسناً. لأنه لا يمكن بعد شبع البطن ألا تدنو إلينا تجارب الأفكار وحركة الأعضاء. فيا للعجب من الذين يشتهون الشبع من المآكل، كيف يمكنهم أن يحفظوا العفة ولا تنحبس نقاوتها، ما لم يمنح العقل حركات إلهية

(١٠) إن الشيطان إذا نظر المتوحد قد أعد نفسه للجهاد مقابله، فهو عندئذ يتحايل بكل وسيلة

أن يربط عقله بالعلمانيين ؛ لأنه مايعرف فخاً أقوى من هذا يعده له . ومن ههنا ففي كل وقت يشاء يستطيع بسهولة أن يخضعه بالسقوط في ثلاثة آلام كبار هي : الحسد والغضب والزنا .

(١) كل أمر يكون الإنسان متفكراً فيه ، واهتمامه متحرك به ، فهو بالضرورة ينفعل بقوة هذا الشيء ، وإليه يميل ، وتتصاعد في قلبه كل ساعة أشكال تشبهه . كذلك أفعال النهار وأنواع تصرّفه ، فإن الفكر في النوم يتخيل أحلاماً تناسبها . فإن كنت مفاوضاً بالله ، فإن همّه يحرك ضميرك ، وإن التفتَّ إلى الشهوة ارتسم تصورها فيك . فلو أنك أخفيت في ثيابك روائح ذكية ، فإن رائحتها تفوح في أنفك من غير أن تشاء ، وإذا حملت سمكة نتنة في ردائك فرائحة نتنها تفوح لك . كما أنه إذا دخل إنسان بيت الطيّب ، فإنه ولو لم يشترِ منه تلصق الرائحة بثيابه . فخُذْ هذا الدليل في معنى الفكر وجنسه . فإن لم يكن في عقلك قوة للهذيذ في الروحانيات كي تحفظ بها ضميرك من السماجات ، أحْضِر بالك اختلال هذا العالم وزوال أموره ، والحزن الذي يُدرَك في منتهاه وحَل تركيب أعضائك .

(١٢) وأنا أتضرع إليك، أيها الأخ، ألا تملّ من أعمال النسك، ولا تتهاون عن السكون. لأن سكون الجسد يولّد سكون القلب، وضوائق السكون تعد لك نياحات إلهية. ولتسترجداً بالضيقات الحادثة عليك لأنها ميناء العفة لجسدك، وهي تقدس ضميرك.

(١٣) كما أنه لا يمكن للإنسان أن يضبط النار المنظورة ويستعملها بالفعل من دون الأجسام التي هي أنواع الوقود، هكذا أيضاً من دون العمل المحسوس بالجسد لا يمكن أن يؤهل الإنسان لنار النعمة الإلهية في قلبه ولا أن يقتني حرارة وقود الحب ومعرفة الله. فإن كنا نهتم بطهارة الضمير ولكننا نبطل الجسد من عمل فلاحة الفضيلة والاهتمام بها، فإن شوكاً وقرطباً ينبتان في حقل ضميرنا عوض الزرع الجيد. لأنه بالنار تنظف الأرض، وبحرارة الأعمال يتقى القلب ويقبل الزرع الطاهر الروحاني. والأعمال التي لأجل الله هي أوانى القدس التي توجد فيها النياحة الإلهية، وبها تُقبل النعم الروحانية والمواهب المقدسة والقوات السمائية.

(١٤) الذي استحق أن يكون بهمّ الله الدائم هو الذي يؤهل للدهش الدائم بالله. والذي يُشقي ذاته من أجل الله، ولأجل الخوف من الخطية، هو الذي يستحق أن

ينظر فى نفسه أعاجيب الله . والذى يحتمل الضيقة بإرادته يحمله الله كما على راحة يده فى كل مكان . ولا يدنو منك شر إلا بنوع التجربة ، وهذا لكى يُعرِّفك الله بعنايته بك ، كما كُتب : « إننا نتضايق ولكن لسنا نختنق ».

(١٥) ينبغى أن نعلم ، يا إخوتى ، أنه بضغط الضيقات نقدر أن ندخل ملكوت الله . كما أن النفس محتاجة إلى أن تتضايق بإرادتها لكى تستطيع أن تقهر عادات الانحلال ، ولكى تؤهل للنعمة حسب قول القديس باسيليوس معلم الحق : « مَن هو الذى نال روح الله بالاتساع والنفخة من المأكولات ؟! »

(١٦) إن طريق الله لا يتطلب أشياء غير مستطاعة . بل ما هو مستطاع أن يكون وما يسمح الوقت بعمله . لأن الذين هربوا من الضيقات وتهاونوا بالأتعاب هم الذين سقطوا بيد شيطان الزنا بالكمال ، وإليهم أشار أوغريس فى قوله : « عَذِّب أفكارك بقلة الأكل ليكون هَدَسها (أو تفكيرها) فى الجوع وليس فى الزنا ». والأب بيمين قال : « إن الجوع والسهر لم يتركانى أن ألتفت إلى السماجات ». وقد أظهر بقوله هذا أنه بالجوع وعدم راحة النوم تصمت الأفكار من النفس ، لأنه من شدة الضيق لا يتفرغ (العقل) أن

ينظر فى شئ آخر . وكما أن الجوهرة لا يحفظ شعاعها بغير فساد وسط النار ، هكذا العفة لا تثبت بغير فساد وسط الراحات .

(١٧) أساس دلائل الوحدة وعلامتها هى : عفة الجسد بالطهارة ، وصيانة الحواس بحياء العفة ، ومن ههنا يتولد حفظ القلب كالتاج الذى هو كمال الوحدة. فالسكوت هو ميناء العفة الذى فيه بالصلاة نتكلم مع الله . وكما بلباس القدس بنقاوة الحركات من أجل دالة الأفكار النظيفة من كل وسخ . وكما بحُلَّة العرس. نتزين كل وقت أن ندخل قدامه بعفة ونقدسه بالنفس والجسد معاً .

(١٨) نوعان من الطهارة نعرف أن الكنيسة تسلمتهما من تعليم تدبير السيرة الجديدة فى المسيح : النوع الواحد هو طهارة الطبع ، والنوع الآخر هو الطهارة التى فوق الطبيعة . فبقداسة الجسد لا ينظر العقل بعد إليه بحسب ترتيب ناموس الطبع ، لأن العفة مفروشة كالرداء على وجهه لئلا تنظر الأفكار إلى تذكارات حركات الجسد .

(١٩) بأربعة أشياء تُحفظ الطهارة بعفة عندما يشاء أن يحفظها فى نفسه ويكون فوق القتال ، وحتى

الشيوخ وكل رتب المتوحدين لايمكنهم أن ينقوا الفكر من دونها ، وهى : الاحتراس بالأعضاء من الدالة والانحلال مع ذاته ، وهذا النوع يمنع عن المتوحد قتالاً عظيماً ، ونظر حىّ متعفف حتى فى زمان الشيخوخة. لأن التهاون فى ذلك يرمى الإنسان فى خطر عظيم على الدوام ويجعله متسخاً . فحفظ النظر واللمس هو الذى يحفظ المتوحد من قتالات صعبة ، وأن لايجسر أن يتطلع فى وجه امرأة حتى ولوكانت عجوز رديئة ، وأخيراً أن يحفظ سمعه من كل سيرة تقال عن النساء وهذا النوع أعنى سماع الأخبار عنهن يثير على النفس راموزاً (أى قتالاً) أكثر من النظر ، وحتى الأطهار يتسجسون بهذه التذكارات ، ولهذا ينبغى أن نحترس بالعقل حتى لايصعد فيه فكر شئ من هذا ، فلا تَمِلْ بسمعك إلى أى حديث حتى ولوكان عن عفة وطهارة امرأة فى شكلها وتصرفاتها ، ذلك إن أردت أن تكون عفيفاً .

(٢٠) إن طبيعة النفس تشبه النار ، وكما أن النار محتاجة إلى مواد هيولية لكى تشتعل بها ويستمر اشتعالها دائماً ، هكذا النفس هى مفتقرة فى كل وقت لأن نحرك فيها مواد التذكارات الجيدة لكى تسخن حركاتها وتسير بخفة فى الروحانيات ، وإن نقصت هذه التذكارات فإنه

قليلاً قليلاً تنطفئ حركاتها من الحرارة فى الإلهيات .

(٢١) هناك خمسة أسباب - أى فضائل - من دونها لايمكن لكل رتب الناس أن يكونوا بلا لوم ، إن كانوا رهباناً أو علمانيين ، وهذه الفضائل إذا ما حفظها الإنسان تخلّص من كل مضرة ، وصار محبوباً عند الله والناس ، وهى : جسد عفيف ، لسان محترس ، زهد عن الرغبة والشره ، كتمان السرّ فى سائر الأمور بغرض مستقيم إلهى ؛ وأن يكرم كل مقادير ومنازل الناس فوق ما يستحقون . لأن الذى يكرم الناس يُكرَّم هو أيضاً منهم ويأخذ المجازاة من الله . لأن الكرامة توجب كرامة والازدراء يجلب ازدراء ، والذى يُكرم الله يُكرَّم هو أيضاً منه .

(٢٢) أربعة آلام كل من كان مستعبداً لها يسقط فى كل ظنون رديئة سمجة ، وهى : جسد مشاغب ، الرغبة فى أشياء جسدانية ، لسان قاسٍ ، ونقل الكلام من واحد إلى آخر بنوع المثلبة ، وهذا الفنّ مبغوض من كل أحد لأن الله يبغضه ، والذى يمارسه يقع فى كل خطية سمجة فى كل موضع .

(٢٣) والذى يتخلى الله عنه لأجل تعظمه يسقط فى واحدة من هذه الأنواع الثلاثة : إما فى فسق سمج ، وإما

فى ضلالة شيطانية ، أو فى أذية عقلية .

(٢٤) العفيف حقاً فحتى نظر عينيه لا يتركه مكشوفاً بلا غطاء ، وينبغى أن يستحى حتى من ذاته . فكما أن الكرْم لا يُحفظ من المفسدين بدون سياج ، هكذا العفة بدون الحياء . كذلك لا يُحفظ الفكر والقلب أيضاً بلا لوم بدون الحياء . لأنه إذا كانت الأعضاء بلا حياء كان الفكر والقلب أيضاً بغير حياء . فالقلب الذى لا حياء فيه يترك حواسه بغير حفظ ، وفى كل وقت يتنجس منها .

(٢٥) خفْ من الله ، أيها الأخ ، ولا تترك عنك مخافته وبغير تدبير نظام عقلى تترك بيتك أى جسدك الذى هو هيكل الله . خفْ من الزلل أيها العفيف واقتنِ لجسدك حياءً واستحياءً . ولحواسك قبضاً ، وبالأكثر فى موضعٍ ينبغى فيه الخوف .

(٢٦) كن مداوماً هذين الكتب وسير الآباء ، لأنه من التذكار والنظر الدائم فى الكتب وفى الطرق التى سلك فيها الآباء تكثر فيك أفكار حارة وعدم تضجر ، وتجعل جميع أعمال مخافة الله خفيفة وسهلة فى عينيك .

(٢٧) العفة هي ميناء القداسة . والقداسة هي قلب نقي من كل رذيلة . وبحق هذا هو قديس الله الفاضل : الذي لا يتبكت من نيته أنه يوافق الشرور في خفاياه . والفضيلة ليست عملاً متعباً أو فعلاً عسراً ، بل هي قلب بغير لوم يرضي الله ، ولهذا لا يُعرف (الفاضل) ولا يُفرز للعين الجسدية ، بل لتلك العين الخفية الفاحصة مخازن القلب . فالذي يريد أن يحفظ قداسته بنقاوة ولكنه لا يهتم بواجباتها يسقط عنها ويخيب ، لأن الذي بنظره وسمعه يخضع بلذة ويميل لنظر وللكلام يوسخ العفة ، فإنه أيضاً يحب هذه السماجات في قلبه .

(٢٨) لهوب لمن تأدب بالأحزان اللائقة بطريق القديسين ، لا بالمحن والأضرار البشرية .

(٢٩) الجسد المتفرد يلد ضميراً متفرداً ، وحسبما يختلط الجسد كذلك يختلط العقل .

(٣٠) المتوحد هو الذي يجعل مسكنه خارجاً عن مناظر العالم ، وله طلبة واحدة فَرْدِيَّة في صلاته هي شهوة العالم الجديد .

(٣١) البتولية ليست هي أن يحفظ الإنسان جسده فقط من الفساد والنجاسة ، بل وأن يستحي من ذاته أيضاً

إذا كان وحده .

(٢٢) إن تهاون المتوحد بخدمة السبعة أوقات الموضوعة كقانون لازم لخلاص الذين يجاهدون مع الشياطين ، وأهملها من غير ضرورة أو بفعل سبب ما من الأسباب ، ثم يقول لك أنه يتخلص من الخضوع لروح الزنا ، فحتى ولو كان شيخاً له مدة كبيرة فى هذه السيرة إما بالفعل أو بالفكر ، فاعْلم عن تحقيق بغير شك أنه يُتوِّه بك ويتحايل أن يستر ويخفى خجله ويُبعد الحس عن النفس لكى لا يترك عنه الراحات ويخضع للقانون .

(٢٣) آلام الجسد هى : الغضب والشهوة ومحبة المفاوضة والحديث الباطل وما شابه ذلك ، وهى تهدأ وتضمحل بالصوم وخدمة الأوقات والجلوس المنفرد بغير طياشة . وآلام النفس هى الطياشة وعدم المعرفة والحسد والمجد الفارغ والعظمة وما شبهها ، وهى تبطل بالصلاة والقراءة والمعرفة المتولدة منها . والذى من دون هذه يروم أن يُسكت آلام الجسد أو ينقى العقل إنما يُشقى نفسه ويتعبها باطلاً .

(٢٤) فى وقت القتال والظلام علينا أن نثبت فى الصلاة وضرب المطانيات على الأرض حتى ولو كنا بالطياشة . وإذا لم يكن تواتر قتال ، بل هو ظلام محزن أو طياشة العادة وأفكار الهَمَج ، فلنفضل جزء القراءة أكثر من الصلاة .

ولكن نمزجهما مع بعضهما ، ونأخذ من الكتاب دواءً نقدمه للصلاة . ولا ينبغي أن نبطل الصلاة مع قوانينها لأي سبب من الأسباب . وطوبى لمن يثبت دائماً على باب الصلاة فإنه لا يخزى .

(٢٥) مُكرَّمة عند الله الضيقات التي لأجل البر أكثر من النذور والقرابين ، ورائحة عرق تعبها أكثر من كل بخور وعقاقير ذات رائحة زكية . كل فضيلة لا يتضايق فيها الجسد فلتكن عندك كالسقط بغير نفس . قرابين الصديقين هي دموع أعينهم وتنهدهم في الأسهار . يصرخ الصديقون بأنين من ثقل هذا الجسد فيستريحون ، ويرفعون صلواتهم بحزن إلى الله فتأتي القوات المقدسة إلى صراخ ضجيجهم ، لأن الملائكة القديسين يشاركون القديسين في تجاربهم لقربهم منهم .

(٢٦) الأعمال والتواضع تجعل الإنسان إلهاً على الأرض . وطوبى للإنسان الذي يعرف ضعفه ، لأن هذه المعرفة تكون له أساساً وبدءاً لكل صلاح وفضيلة .

(٢٧) محب الأعمال ليس هو الذي لا يحب راحة الجسد ، بل هو الذي لا يحب مفاوضات الجسد ومحادثاته . كذلك ليس كل من كانت أعماله قليلة هو محب للراحة ، ولا كل من كانت أتعابه كثيرة هو محب للأعمال .

فثمَّة من تكون أعماله قليلة ولكن نفسه مملوءة حزناً، والأعمال التى عَدِمها بالجسد بسبب ضعفه واضطرابه يوفيها بعمل القلب وبالانقباض مع نفسه، إذ يلجم أفكاره لئلا تتواثب على نفسه آلام الجسد. وثمَّة من يعمل كثيراً حسب القوة التى فى جسده، ومن وقت لآخر يضيع أعماله بانحلال الراحة وبالطياشة فى كذا وكذا، وبسبب ذلك لا ينتج فيه من أعماله شئ من المنفعة، كما وينشأ فيه الافتخار من وقت لآخر.

(٢٨) اعلمْ أن الآباء العارفين لم يضعوا قوانين محدودة على أعمال الجسد لكل منازل ورتب الإخوة السكان فى الهدوء بالتساوى، بل أذنوا لكل واحد أن يتدبر حسب مقداره وحسب مزاج جسده وموضع سكنه، وحسب سنه. كما أن أعمال الجسد من دون حفظ العقل هى بطن مقفرة وثدى ناشفة، ولا توصل الإنسان إلى مخافة الله حتى ولو كان الجسد عاملاً للمواهب الإلهية.

(٢٩) كما أن المواد الدهنية تزيد اشتعال النار، هكذا طراوة (أى دسومة) الأطعمة تنمى ألم الشهوة.

(٤٠) معرفة الله ما تسكن فى جسدٍ محب الراحة. فالإنسان الذى يحب جسده لا يؤهل لمواهب الله. وكما

يشفق الآب على ابنه ، هكذا يشفق المسيح على الجسد العتال ، وهو في كل وقت قريب من فمه (أي يسمعه). ومن نصيب الشيطان ومرذولة عند الله هي الفضيلة التي تكمل بالراحة .

(٤١) ليس فكر فاضل ما يكون حدوثه موهبة من فوق. هكذا أيضاً الأفكار التي تضاد عمل الوصايا بقوة ، إنما تكون بنوع التجربة من العدو .

(٤٢) فلاح الحقل الناطق (أي العقل) هو الله ، وزرعه هو الأفكار الفاضلة الحارة المتحركة بضميرنا في كل وقت . وزوان الإنسان العدو هو الأفكار الرديئة التي يبذرها وسط الحنطة زريعة صاحب الحقل الجيدة. أما أنت ، فاقلع الزوان واحفظ الحنطة ونقّها لتكون غذاءً حلواً للنفس .

(٤٣) إن لم تقتنِ مادة تنفع بها المحتاجين وتعاضد المضنوكين ، فكن مشاركاً لموجبي الرحومين بشفقة قلبك عليهم ، وإن اضطرك أمر لذلك فلا تضيع بعدم شفقتك دالّة قلبك قدام الله الرحوم وفي وقت الصلاة تخيب من الدالّة إليه التي هي تنعّم القديسين قدام الله وقت الصلاة . وإذا كنت هكذا وما تنخسك نيتك فاعلم أنك متدبّر بلا إفراز .

(٤٤) كلما احتُقِر العالم عندك ، كلما تزايدت فيك محبة القريب ، وتتبعها نعمة الروح القدس فترفع أفكارك لمحبة الله مثل ترتيب السيرة . وحسبما تتزايد فيك التمسك بالعالم ، هكذا تنقص عندك محبة القريب .

(٤٥) كل تدبير لا يوافق الوقت عليه ولا السبب ، لا يُطالب به مَن لم يعمله . أما إن كان هناك تدبير يوافق الوقت لعمله ، ثم يتهاون به الإنسان فإنه يكون فى ناحية المذنبين .

(٤٦) الرحوم الحقيقى هو الذى فى استعماله الرحمة لا يفرز المستحق من غير المستحق ، ولا يميز شيئاً من الرتب .

(٤٧) البر هو إفراز النية قدام الله بعمل الجسد . والفضيلة هى حكمة القلب ، وحيثما توجد هناك يسكن الله ، وهى مفتاح ملكوت السماء . القلب غير الحكيم عديم الإفراز لا ينتفع ولا من الأعمال الجيدة . لأنه بجهل ضميره يفسد أعماله . أما القلب الحكيم فهو من غير عمل يتكل لأجل المشيئة التامة التى يظهرها قدام الله العارف بالكل .

(٤٨) ندم النية هو هو التوبة ، والاتضاع هو أن يلوم

الإنسان نفسه ، فهذه هى ندامة التوبة . ومثل هذا الإنسان (الذى يلوم نفسه) يكون محبوباً من كل أحد ، لأن الله قد أحبه . وإذ لم يجد الله هذا فى شعب إسرائيل ، لامهم على يد إرميا النبى قائلاً : « ليس من يندم على شروره ويقول بئس ما صنعتُ بل الجميع سالكون فى أهوية قلوبهم كالفرس الذى ينجذب للقتال ».

(٤٩) الغريب هو الذى تغرَّب بفكره من جميع أمور هذا العالم . والنوَّاح هو الذى بالجوع والعطش يخرج كل أيامه بهذه الحياة من أجل انتظار الرجاء السمائى. محب المديح ليس هو الذى إذا مُدح يستريح بالمدح ويفرح ، بل هو الذى يتحيل أسباب المدح .

(٥٠) المتواضع العقل هو الذى إذا مُدح ولو عن استحقاق لا يستريح قلبه بذلك . المتواضع هو الذى ما يقاوم فى شئ ؛ لأن من كان متواضعاً لا يكون مقاوماً . والذى يشتمل بالغضب فى تقويم الآخرين ، ليس هو متواضعاً ؛ لأن المتواضع الحقيقى هو مبتعد من كل غضب ، ونقى من سائر حركات الغيرة ، وهو يسأل بمحبة وما يتألم ولا يتكدر . لأن المتواضع تلازمه بالضرورة قوة الاحتمال والصبر ، لأنه بدون قوة الصبر على الأحزان والضيقات ما تُعرف قوة التواضع .

(٥١) المضبوط بأمور هذا العالم . والمرتبط بشيء من الأمور الزائلة ما يستطيع أن يكون متواضعاً قدام الناس ولا غير متنجس فى كل وقت ولا نقى القلب . فالمتواضع هو المائت بالحقيقة الذى قلبه ليس مرتبطاً بشيء من أمور هذا العالم ، لأنه ما يتنجس من محبة شيء من الأمور (الزائلة) . فإن أردت أن تكون متواضعاً ، فحل ذاتك من أمور العالم ، واتبع الواحد (الله) بالإيمان والرجاء والحب ، وعند ذلك تجد عوض العالم الواحد الذى تركته سلطان العالمين الاثنين .

(٥٢) فى الوقت الذى تكون فيه بطالاً من العمل بسبب ضعف الجسد ومرضه ، استعمل اتضاع العشار الخالى الذى - من غير عمل الجسد - يتفاضل الإنسان به عند الله ويتبرر .

(٥٣) لتكن نفسك محقورة فى عينيك ، وازدرِ بها فى كل وقت ، فتتضع قدامك جوقات الشياطين . واتعب ذاتك فى الركوع قدام الرب ، فتنحل من قدامك كل حيل الشيطان ، وينفتح داخلك ينبوع المعونة والمعرفة . فادعت فى هذه الحياة حقر نفسك على الدوام بذكر خطاياك ، واعترف بها قدام الله وأنت منسحق على الأرض . فتتولد لك من هذا دالة القلب قدام الله ، لأنه ليس

يبقى بلا عزاء قلبٌ منسحق "خائف" من الرب. لأن «ذبيحة الله هى قلبٌ منسحق" وروح "متواضعة لا يرذلها الله".
والذى هو غريب عن هذا هو غريب عن مراحم الله ومعونته.

(٥٤) إذا ما انسحق قلبنا دَنت منا الرحمة والنعمة. أما إذا وثق قلبك بأعماله، فافهم أن مجئ التجارب قريب منك. والأغراض المؤذية والمحزنة للجسد يكون حدوثها للإنسان بسماح من الرب لكى تسبب له التواضع والخوف. ولا تظن أنه بدون سماح من الرب تصادفك تلك التجارب التى تؤذى وتحزن وتوجع وتسحق، إن كانت من لمبيعة الجسم بالأوجاع والأمراض، أو من مضادة الأشياء التى تؤذى، إن كان من الوحوش أو من لدغات دبيب أو من عثرات فى الأحجار، أو كان بتوسط الناس والشياطين، فإننا نقع فيها بسماح من الرب، وبسياسة منه تتحرك علينا لأجل مقتنا (أى إذلالنا) وتوضيعنا.

(٥٥) ليس عزاء لخواص الرب خارجاً عنه، ولا ضغطات وأحزان ومشقات من كل بُدٍّ (من كل حالٍ) ونوع إلا ويكون حدوثها منه. وهى لا تبطل بتحيلنا وتدابيرنا، لأنها قد أخذت قوة علينا بسماح منه. فإذا قسَّينا قلوبنا مقابل التجارب، فهذا علامة ودليل أن ضيقتنا سوف

تتصعب جداً، ويسمح الله بذلك. وإذا استعددنا قبالة التجارب بقلب منسحق واتضاع، فهذا علامة ودليل أن الرحمة ممتزجة بالتجارب. ولهو بى لمن يخاف دائماً كقول الكتاب، أما الذى يقسّى قلبه فيقع فى الشرور. لأن القلب القاسى تكثر أوجاعه.

(٥٦) وينبغى أيضاً أن نعلم أن المحزنات تجمع العقل إلى الله. وكل شئ نفعله بغيرة وخوفاً من الخطية هو فضيلة تامة وشهادة من أجل الله؛ لأن العقل يهذّ بالموت لأجل وصايا الرب، وهو يحفظ الوصايا بسبب الخوف من الخطية. والخطية هى أن يوجد فينا شئ من الأمور التى قد حُدِّد علينا أن لا نفعلها ونوجد لها مدينين؛ لأن الاحتراس من هذه الأمور بحكمة فى أى نوع كان، يُكمِّل فينا الحب لله والقريب، ويُحسب لنا فعل شهادة. كقول أحد القديسين: «إن كل شئ يُفعل بالأمر (رديئة) بشرية هو خطية، وكل اضطرار وضيقة من الله هو اعتراف». وباختصار فإن الفضيلة هى الهذيذ بالموت من أجل الله. وهذه هى الفضيلة: أن يصبر الإنسان على الضيقات لأجل مخافة الله، وإذا ما أدبنا الرب فى شئ من الأشياء، فلنتخذ ذلك بنوع التوبيخ والتقويم، ونتحبَّر فيه لنربح ونشكر الذى فى كل أمر يطلب ربحنا ويشاء خلاصنا، ولا نفتح فمنا

بوقاحة وقساوة ونلوم سياسة الله وتدبيره كما لو أنه بظلم يجلب علينا التأديب .

(٥٧) كلما كانت مخافة الله لاصقة بقلبك ، اعلم أن عناية الله تتبعك فى سائر أمورك ، وتظهر هذا من عنايته بك فى الأشياء الجسدانية حيث تجد المعونة منه فى الأمور الظاهرة من جهة احتياجك الضرورى ، وفى أوقات كثيرة تجد فسحة وسهولة فى الأمور العسرة الصعبة . كذلك فهو يمزج لنا العزاء فى التجارب العارضة لنا فى طريق مخافة الله ، لكى إذا تضايقت من ناحية بالتجارب يدبر لك عزاءً ومعونة من ناحية أخرى إن كان فى مرض أو فى عائق أو فى عوز شئ ما ، فهو فى كل أمر يعرض لك يعزى ويسلى بالمعونة .

(٥٨) فى خمسة أبواب يدخل الإنسان إلى حكمة الروح وإلى كل معرفة إلهية ، الأول التهذيب فى الكتب ، الثانى الهمة بعمل الفضيلة والاهتمام بها ، الثالث التجربة (أى الخبرة) بالحروب ومقاساة التجارب التى لأجل الفضيلة ، الرابع أخذ تجربة عناية الله التى تعين فى وسط التجارب والعوارض الصعبة . هذه الأبواب الأربعة تقدم الإنسان إلى معرفة الله بمادة

من خارج . أما الباب الخامس ، فهو بدون مواد خارجية يُوصل إلى معرفة أفضل ، وهو الموهبة التى تُعطى لنا من نعمة الروح القدس داخل القلب . هذه (الموهبة) هى: النبوة ، وقوة سبق المعرفة ، ووجود الأسرار والإستعلانات غير المحسوسة بالعقل ، واستضاءة الأفهام . فمن يقرع باب الكتب بإفراز ينفتح قدامه باب الفضيلة . ومن يدخل باب الفضيلة ينفتح عليه باب التجارب ، ومن يدخل فى باب التجارب التى لأجل الفضيلة فإنه يأخذ تجربة (أى يختبر) عناية الله ويكون لصيقاً بالملائكة. ومن يدخل فى هذا الباب فهو بتوسط التعزيات والمجاذبات التى تصادفه ، يؤهل لعناية الروح القدس .

(٥٩) التجارب الحادثة لنا وتعرض بدون إرادتنا بنوع من السياسة الإلهية ، هى تعلمنا محبة الأعمال وتجذبنا إلى التوبة من غير إرادتنا . ولهذا فإن القلب المؤمن ما يخاف من شئ . بل يحتمل كل الأشياء ويُصدق أن الله قد جلب عليه (التجارب) بسياسة منه. لأن الله ينظر فى تواضع قلبنا ، ولا يتركنا أن نقع فى شئ ردئ أو أن نضل منه ونهلك . فالأعمال التى لأجل الله تتبعها معونة ، وباختصار فإنه بالضيقات توجد كل الخيرات ، وبالضيقات يقتنى الخطاة درجات القديسين ، وهى رسم التوبة .

(٦٠) لأنه إذا ما ثبتت النعمة الإنسان فى الاتكال على الله والثقة به ، عند ذلك تبدأ أن تدخله فى التجارب قليلاً قليلاً ، وتسمح أن تنطلق عليه التجارب التى تكون فى منزلته كفاية ومقدرة على حمل صعوبتها ، وفى وسط التجربة تدنو منه النعمة بمعونتها (بنوع) محسوس ، وذلك لكى يثق ويتشجع ويتخرج (أى يتدرب) قليلاً قليلاً ، ويقتنى حكمة وفهماً ، ويجسر على أعدائه بثقته بالله . لأن الإنسان لا يستطيع أن يتحكم (أى يقتنى حكمة) فى القتال الروحانى بدون هذه (التجارب) ، ولا أن يعرف مدبره ويحس بالله وتثبت أمانته فيه خفياً بالقوة التى قبلها فى نفسه بالتجربة (أى بالخبرة). وإذا نظرت النعمة أنه قد بدأ يتحرك فيه فكر عظمة ما أو ظنون بنفسه (أى غرور) ، فإنها تسمح بأن تشتد التجارب عليه وتتصعب ، لكى يعرف ضعفه فيهرب ويلتجئ إلى الله باتضاع . لعجيبة هى معونة الله مع الإنسان وتعرف إذا حصل فى وسط أمور خطرة مملوءة من قطع الرجاء واليأس ، حيث هناك يظهر الله قوته ويخلصه منها . فالإنسان لا يعرف قوة الله أبداً فى الراحة والسعة ، ولا يظهر قط فعله محسوساً إلا فى موضع هادئ وبرية ومواضع خالية من الاضطرابات

والمفاوضات ومن مساكن الناس .

(٦) لا تعجبن من هذا ، أنك إذا بدأت بالفضيلة فالوقت تتبع عليك ضيقات صعبة من كل ناحية ، لأنها لا تحسب فضيلة تلك التى لا يتبع عملها تعب ومصاعب . لأنه من هنا قد سُميت فضيلة ، ومن عادة هذا النشاط أن تحيط به المصاعب . ومرذولة هى الفضيلة التى تكمل بالراحات . فكل فضيلة تُسمَّى صَلباً ، لأنها تكمل وصية الروح : "لأن جميع الذين يريدون أن يحيوا بمخافة الله بيسوع المسيح يتضايقون ويُطردون" ، " ومن يريد أن يتبعنى يكفر بنفسه ويحمل صليبه ويأتى ورائى " ، " ومن يريد أن يحيى نفسه بالراحة يهلكها ، ومن يهلك نفسه من أجلى يجدها " . ولهذا سبق فوضع قدامك الصلب والموت حتى تضع ذلك على نفسك وتسير وراءه وتتبعه . فليس شئ أقوى من قطع الرجاء (باستعداد الصلب) ، هذا لا يعرف الانقلاب من أى شئ سواء كان فى أمور يمينية أو شمالية . لأنه إذا قطع الإنسان الرجاء من حياته ، فليس لبيب مثله ، ولا عدو يقدر أن يلاقيه . فطوبى لمن يتهاون بهذا العالم وبياحاته ، ويتبع الرب ويسير وراءه . لأنه يفرحه معه فى العرس فى عالمه الجديد .

(٦٣) أيها التلميذ الذى يريد أن يجد نفسه فما لله المطلب هذا: أن تُهلك جسدك بأعمال مخافة الله، وأن تُحزن نفسك بالتنهد والألم على شرورها، لكى تجدها فى الراحة التى لا تفسد. وصَلِّ فى وحدتك بهذه الصلاة قائلاً: يا الله أهلنى لحزن النوح فى قلبى، يارب استأصل من قلبى مفاوضات العالم.

(٦٣) الوقت الذى تريد فيه أن تترك بلدك من أجل الله، هذا هو بدء الفضيلة. فاترك الموضع الذى تتنعم فيه بالجسد وأرفض أسباب الراحة من أجل الخوف فى أمور النفس لئلا تخسر فى الروحانيات. وإن كان الفكر يسجسك ويخوفك، أذكر هذا وصَدِّق أن الله يوفق لك موضعاً أفضل وأوفق من ذلك، ويكون الله لك مرشداً إلى حيث تمضى. ولأنك بنوع الفضيلة قبلت على نفسك أن تقطع الهوى الجسدانى الذى يريد الراحة وتهتم بفوائد الروح وتتضايق فى فكرك حتى تعتاد ذلك، وتغصب ذاتك وتتبع سيدنا، فهو يُصوِّب لك موضعاً يُعزّى أكثر من الموضع الأول لكى تحمل المصاعب بفرح بقوة يهبك إياها.

(٦٤) ينبغى أن يكون لك إيمان تام بالله، وهذا ضرورى للإنسان، لكى يقتنى به شجاعة الأفكار حتى يستطيع

أن يترك بلد وموضع الراحات بقصد وغرض الفضيلة. ويؤمن أن الله يكون له مدبراً ومرشداً ومُصَوِّباً ومعيناً. لأنه ليس كل أحد يرفض الراحات لأجل الفضيلة مالم يثق بسياسة الرب وتدبيره الخفي وغير المنظور. فإذا ما بدأ الإنسان بالأعمال الصعبة من أجل الرب، وبدأ يدخل ذاته بالفعل تحت الصعوبات، فهو إن لم تكن لديه هذه الثقة، لن ينظر هذه السياسة الخفية المدبرة لجميع الخليقة وخاصة للقديسين. فإن لم يتشجع الإنسان بفكره ويدخل إلى الجهاد، فهو لا يستطيع أن ينظر معونة الله التابعة لطريق الفضيلة.

(٦٥) لأن الذي يشتاق إلى الروحانيات فبالضرورة يتهاون بالجسدانيات ويرفضها بفرح ويستخف بها. والإهمال والكسل يغيبان الإنسان من معرفة الله. ومن أنه بالتجربة بإيمانه يثبت في الإلهيات. لأن الذي لا يؤمن يكون دائماً متعبداً للجسد. والخوف من أجل الجسد والحرارة من أجل الله لا يثبتان معاً في نفس واحدة، كما أن عدم الإيمان والإيمان كليهما لا يكونان في نفس واحدة. فالاهتمام الزائد وشك القلب وتقسُّمه يتبع قلة الإيمان. لأن الإيمان يعرف أن الأمور غير المستطاعة عند البشر هي مستطاعة عند الله.

لأنه ليس شئ يعسر على الله . فكل شئ مستطاع للإيمان، لأن المؤمن إنما يكون نظره إلى الله وليس فى الأمور .

(٦٦) * النفس التى تحمل غيرة الفضيلة وأعمال مخافة الله لايمكن أن تكون بلا أحزان كل يوم ، لأن الفضيلة والأحزان هى بالضرورة مشتبكة بعضها ببعض. فالذى يهرب من الضيقات يخيب من الفضيلة أيضاً . والذى يثبت فى الفضيلة يقاسى أيضاً الأحزان . فإن اشتقت للفضيلة أسلمت نفسك لكل ضيقة . فالفضائل تولّد الضيقات . والضيقات تولّد التواضع .

(٦٧) * إن الله لايشاء أن تكون النفس بلا اهتمام، فالذى يريد هذا (أى أن يكون بلا اهتمام) قد أوجد عقله خارجاً عن إرادة الله . والاهتمام ليس هو الذى يكون من أجل الجسدانيات ، بل هو الهمّ من أجل الضرر الذى يتبع الفضيلة . فإلى أن نبلغ إلى معرفة الحقائق التى هى استعلان الخفايا ، لايمكننا أن ندنو من الاتضاع إلاّ بواسطة التجارب . والذى هو بلا أحزان فى الفضيلة فإن باب المظمة ينفتح له . لأنه لايمكن من غير أسباب المقت (أى المحقرة) ، أن يكون الضمير فى التواضع. كما أن الله لايرفض الإنسان بالكلية أو يكرهه لأى شئ من الخطايا ، إلا إذا وجد عقله متفاوضاً بأفكار

* راجع المِيمر السابع من الجزء الثانى ص ٧٠-٩٠

العظمة والافتراء والتجديف ، ولهذا تكون الأولى (أى العظمة) سبباً للثانية (أى رفض الله) . والذين يخرجون من طريق التواضع بضميرهم ، وبهذا يتعرون من المعونات الإلهية ، يسقطون : إما فى سماجة الفسق ، أو فى التجديف على الأمور الإلهية ، أو يتأذون فى عقولهم . أما الذين يتعظمون بتدبير الفضائل فيسقطون بالأكثر فى الفسق السمج ، والذين يتعظمون بتدبير فضيلة العقل يسقطون فى التجديف على الأمور الإلهية ، أو يقعون فى ضلالة العقل .

(٦٨) والعظمة ليست هى الفكر إنما عبر فى الضمير. بل هى التى يثبت فيها الضمير . أما الحالة الأولى (أى مجرد عبور الفكر فى الضمير) فمن الواضح أن الندامة تتبعها ، وأما هذه (أى ثبوت الفكر فى الضمير) فإذا ما أحبها الضمير لا يعرف الندم . وتلك الأولى هى دليل على ضعف الطبيعة ، وأما هذه فهى من وقاحة الإرادة ، وأحياناً تكون من مدح الناس أيضاً . فهناك من يتنجس عقله وينضرب بالتجنن . ويريد أن يكون فعل العجائب على يديه قدام الناس لكى يكثر مجد عظمته ، فيحسبون أنه قريب جداً من الله .

(٦٩) كثيرون تقاضلوا بتدبير السيرة ، وأُعطوا من الله مواهب كثيرة ، وما قدروا أن يحتملوا كثرة المواهب التي حصلوا عليها . فانساقوا للعظمة وذُلوا كالكناسة وابتعدوا عن الله وخابوا من عظم الرتبة التي كانوا فيها . وكثيرون آخرون كانوا هادئين ومرتبين وذوي عقل رزين وكلامهم موزون ، أغفاء في سيرتهم وفضلاء في المعرفة ، فصاروا علامة رعب لمن يعرفهم ومنظراً محزناً مبكياً لمن يبصرهم .

(٧٠) ليس كل هادئ متضع ، بل كل متواضع هادئ . متواضع غير حَيِيّ ولبيب لا تجد ، حَيِيّ غير متواضع تجد مثله كثيرين . لأن المتواضع في كل وقت يكون هادئاً ، فلا شئ يحرك ضميره أو يزعجه .

(٧١) إذا أردت أن تخرج من العالم ، وتترك الأقارب والأهل والبلد ، وتتبع المسيح بسيرك في طريق الفضيلة ، فلا تتجسس بأفكار الهمّ بالقوة والكسوة لأنه إذا كان عملك مع الله فهو الذي يهتم باحتياجك . وهذا (الهمّ) يعرض لك من قلة الإيمان ، وبهذا الشك يتساوى المؤمن مع الكافر : فالوثني يعتقد أنه ليس إله غير الصنم الذي يعبده ، أما المؤمن فيعتقد بالله ولكنه لا يثق به أنه يهتم باحتياجه ! العالم يسرع بالسجود

تحت أقدامنا ويسألنا لكى نعلّمه الحق ، ويقبل قولنا بإيمان ويسير فى طريقه بفرح ، ونحن نعلم الحق وبيتنا خراب من داخل! فيا من تفسر الحق لآخرين ، اعرفْ أنت الحق من نفسك : أنه ليس أحد يتبع الله وينبغى له أن يهتم بالموت ، ولا يقدر أن يتكل على الله وقلبه متشكك . فالذى يثق بالله لا ينبغى أن يهتم بشئ. وهذه هى وصية ربنا : « لا تهتموا أنتم بما تأكلون، وتقولون ماذا نأكل وماذا نشرب ، بل اطلبوا ملكوت الله وبره وهذه جميعها تزاد لكم » .

(٧٥) والرب لم يقل لنا إنكم لا تتذوقون التجارب . فهو لم يدعُنا للتنعُّم . فمن هو الذى يخرج فى طلب اقتناء الملكوت ولا يشقى ؟ لكنه (يقول) إننى إذا ما تركتكم تتضايقون فى الأحزان حسب قوتكم ، فإنى أرجع وأفتقدكم لكى تعرفوا من هذا الموضع (مقدار) اهتمامى بكم بالتجربة (أى بالخبرة بما تتألمونه) بعد الأحزان . لأن الذى يجوع من أجل المسيح ، فهو يكون له مأكلاً ، والذى يعطش هو يكون له مشروباً حلواً ، والذى يتعرى هو يكون له لباساً ، والذى يتعب راحة ، والذى يصلى رجاءً حقيقياً ، والذى ينوح عزاءً. وهذا هو ما قاله القديس مرقس : « إن المسيح هو يكون كل شئ للذى يؤمن » . ولهذا ينبغى أن يكون لنا إيمان

حقيقي بالمسيح أنه يستطيع أن يجري من الحجر عسلاً.

(٧٣) إن كنت تثق في سياسة الله وتدبيره أنها ضابطة جميع أمورك، فلا تستعمل التحايل البشري. فإن كنت تشتغل بهذا (التحايل)، فاعلم أنك قد اقتنيت معرفة لا يتبعها إيمان، أعني أنك اقتنيت ظنوناً عادمة من معرفة الحق. فلا تتكل على إنسان لئلا تخيب من النعمة. وإن ألقيت همّك دفعة واحدة على الله، فأقفو (أي اتبع) بذلك إيمانك به. وإن كنت تؤمن فلا تخف، لا من شيء تحتاجه من ضروريات القوت الوقتي، ولا من شيء يؤذي الجسد، كما لو كانت الأشياء التي تأتي عليك كيفما إتفق أو كأنك خالٍ من العناية بهمج (أي بدون ترتيب). فحيث يوجد اقتناع الضمير لا يكون هناك رعب من الأفكار. وحيث يكون التقسم وشك القلب لا يهدأ الضمير من الرعب.

(٧٤) كثيرون من أجل أمل الراحة الجسدانية خيبوا أنفسهم من غنى عظيم ومن خير كثير، حتى ولا الذين هم في العالم يتصرفون في أمور جسدانية يبلغون مقاصدهم إن لم يقطعوا على ذواتهم أن يقاسوا المصاعب. فكثيرون يتخلفون عن طريق ملكوت السموات

من أجل انتظار راحة قريبه . وكل أحد يعرف أنه حتى الطير بأمل الراحة يدنو من الفخ ، وكم من وقت يسأل الإنسان ، عندما يريد أن يبدأ بعملٍ ما من أجل الرب ، إن كان فيه راحة وإن كان يسهل المسير فيه بلا عناء ولا تعب ، ولا يكون فيه شئ يضغط الجسد ! ماذا تقول أيها الإنسان الذى تريد أن تصعد إلى ملكوت السماء ، وتنال تلك الحياة الروحانية ، وتلك السعادة والخلطة مع الملائكة ، أتسأل إن كان فى الطريق تعب وصعوبة ؟! ياللعجب ، إن الذين يشتهون أمور هذا العالم وغناه وسلطانه يجسرون على أمواج البحر ويسلكون الطرق المخوفة فى أسفار مديدة مملوءة أتعاباً وضيقات ، ويصبرون عليها جميعها وما يفكرون إن كان فيها عناء وتعب ، ونحن فى كل موضع نسأل عن الراحة !

(٧٥) اهتمام الأفعال يكدر النفس ، ومجاذبات الأعمال تسجس العقل وتخرجه من هدوئه وتطرد منه السلام . فينبغى للمتوحد أن يكون بلا اهتراف فكره على الدوام ، لكى يتلو فى ناموس ليلاً ونهاراً من غير انجذاب (لأى شئ) .

(٧٦) التدبير الروحانى هو الدهش بالسرّ الذى لا يتعلمه أحد ، لا من الناس ولا من الملائكة ، بل يظهر

فى النفس من الروح القدس بتكميل وصايا ربنا . والتدبير الروحانى ليس فيه أتعاب ولاحروب ولاضنك جسد ولامجاهدة مع الأفكار ، لأنه ليس هو تحت اهتمام الحركات النفسانية . فكل تدبير موضوع تحت سلطة الإرادة فيه حروب ، وهو مفتقر لتعب الجسد وعناء الضمير . وأكثر المتوحدين يسيرون بهذين التدبيرين ، عمل الفضيلة وتدبير سيرة العقل الخفية ، لأنهما موضوعان تحت (سُلطة) الإرادة ، وفيهما تعب وجهاد ، وهما محصوران داخل الهذيذ والاهتمام البشرى . أما الحركة الروحانية فهى ليست موضوعة تحت حرية الإنسان ، ولا تُقتنى بالتعليم والتدريج والتُّربة (أى التمرين) ، ولا تعمل بالإرادة . لأنه لو كان التدبير الروحانى يُقتنى بالتعليم والدربة وأعمال إرادة النفس ، لكان سائر المتوحدين الذين تحت السماء متدبرين بالروحانية ، لأنه لايوجد (أى التدبير الروحانى) إلا بنقاوة القلب ، تلك التى لاتُقتنى إلا بالبعد من كل العالم بالجسد وبالضمير .

(٧٧) بين عشرة ربوات من المتوحدين تجد واحداً قد أُهِّل للتدبير الروحانى فى هذه الحياة . لأنه من حيث يبدأ الإنسان بتدبير العقل الذى هو الهذيذ الدائم بالإلهيات ، وإلى أن يبلغ إلى التدبير الروحانى

الذى هو الدهش بالله ، فهو محتاج أكثر من جميع الأعمال إلى الصلاة التى تكون بتغصّب وتكمل بضرب الملمانيات ، ولا يبطل الصوم أبداً ، وينال من القوت حسب ما يكفى الجسد ليقوم بعمل الصلاة

(٧٨) لا تظن أن الله يدبرك فى هذا العالم بغير تجارب ، وبالأكثر إذا كنت محباً لله ولما يخصه . وإن عرض لك هذا الفكر فلا تثق به ولا تصدقه ؛ لأن الله إنما قد حَدَّ حياة بغير أحزان للعالم الجديد فقط ، والذين لا يعرفون قصد الله وغرضه وسياسة تدبيره ولأى حكمة قطع الله بالأحزان على حياة هذا العالم . أناس منهم يظنون أنه لأجل مكافأة السرور فقط يجلب الله الضيقات على الناس ، وهذا فكر ناقص جداً عن سبق معرفة الحكمة فى تدبيره ، ولو أنهم أخذوا مادة لهذا الفكر بسذاجة من الكتب . فمَن مِن الناس خلا وتبرّأ من الأحزان والضيقات ؟ هوذا الأنبياء والرسل والصديقون الذين كانوا فى كل الأجيال أيضاً ، كم من ضيقات قاسوها ، وبكم من الأحزان أكملوا حياتهم فى العالم ، ألعل هؤلاء كانوا خطاة ؟ ومن أجل أية خطية انقمعوا بالأحزان ؟ وأنا أسكت عن ذكر عملهم الصالح وسيرهم التَّعِبْ . أم لعلهم لم يكونوا قد انفقوا بعد من الزلل حتى ينقمعوا لأجله ؟ فمن هو الذى يعرف

لأجل أى أمر أو سبب قاسوا تلك الأحزان؟ ينبغى لنا إذاً أن ننتظر الأحزان والضيقات مثل الأنبياء والرسل والصديقين ، سواء كانت مكافأة من أجل خطية أو من أجل البر ، فإنه ولا واحد منهم عاش بلا أحزان أو ضيقات .

(٧٩) ولنذكر أيضاً هؤلاء الذين لم يبلغوا بعد إلى الخطأ أو للتبرر ، وهم كجزء من الطبيعة يشاركوننا فى الأحزان والضيقات ، وأعنى بقولى هذا الأطفال البسطاء . فلمكافأة أية خطية ولقمع أى شرور أو لاختبار أية حرية يتضايق هؤلاء الأطفال الطبيعيون ؟ فمع أنهم عاريون من هذه الأمور جميعها ، إلا أنهم مثل التائبين فى القامة والمعرفة ينضغطون بأحزان الجسد وبأمراض مختلفة وأوجاع صعبة يضنك أجسادهم ، ويُسلمون بيد الشياطين . وأكثرهم يخرجون من هذا العالم بضيقات مختلفة . فلأجل أى سبب ومكافأة لأى أمر بالعدل يُؤدَّبون ؟ غير أنه مثلما قلنا سابقاً إن الله قطع على حياة هذا العالم بالأحزان الدائمة والضيقات . ولولا أننا قد نتمرمر بقلوبنا ونقع فى أن نلوم الخالق تعالى ، لكنا نقول بإفصاح ظاهر أنه يُسَرّ ويشاء أن نتضايق فى كل حال . وقد رأى أنه هكذا ينبغى أن يكون سُكنانا حارمنا مقيمين فى هذه الحياة . لأنه غير لائق أنه من أجل تلك المعرفة

اللذينة والسعادة المعدّة قد سمح بهذا ، وأخفى مشيئته ، ولعل سبب ذلك إنهاء الخطية . أما نحن فنسجد لحكمته على سائر الأمور ، وكيف أنه بسياسة لا ينطق بها يدبر الكل . ولهذا فليس أحد من الحكماء العارفين يفكر أنه يُستطاع أن يكون الإنسان خالياً من حدوث التجارب والضيقات مادام في الجسد ، وفي تصرف تدبير الفضيلة .

(٨٠) إعلم أنه بحسب ما تقدم أنس الناس ، وبحسب بُعدك وانفرادك من المسكونة ، يفتقدك الله في جميع أحزانك بتعزيات متواترة ، وتحسّ بهذا الفعل في نفسك . لأن إلهنا الصالح الطيّب لا يهمل الذي من أجل حبه يزدري ويترك الآباء والبلد ويحب القفر والبراري .

(٨١) السكون هو مبطل ومبدد الآلام الوحشية ، ومميت للتذكارات الباطلة ، ومجدد للعقل العمّال ، إذا قرن معه هذان الأمران : نقص الغذاء ، وهذيذ العقل على الدوام بأسرار العالم الجديد وربط الضمير بذكر الله بغير انقطاع ، وإن انقطع ربطه عاجلاً كما علّمنا الآباء وأفهمونا . فإن صحّ هذان الأمران فإنهما يقومان معنا ويصبحان لنا مثل اليد اليمين

والشمال ، وبمعونة ربنا بسهولة ندوس على رقبة الأعداء .

(٨٢) إن كُنه السكون يدل على معنى فعله ، أى الهدوء وعدم السجس وعدم الاضطراب . ولا ينبغى أن نتخذ الهدوء بجزء واحد فقط من أجزاء إنساننا ونترك بقية الأجزاء فى المجاذبات والالتفاتات ، بل نهدئ جميع أجزاء النفس والجسد . ومثلما نهدئ الجسد ونسكته بالحبس داخل القلاية ، هكذا نكون بلا سجس فى الأفعال البرانية التى تكمل بالجسد . وكما نمنع جسدنا من أن يضطرب بغير الواجب ، كذلك أيضاً نجمع عقلنا من الهمّ بالهذيذ بالجسدانيات ومن الملامة والحقد على القريب ، ونسمره دائماً بالصليب ، ونحرسه حتى لا يخلّ وينزل من هناك . فإن داومنا على هذا بلاضجر ، وبالرجاء يوماً بعد يوم نصوّب إليه كل غرض تدبير سيرتنا ، فإننا لسنا نتعب زماناً كثيراً فى التجارب ، لأننا بذلك نُخضع الحواس ونقمع جميع لذّاتها المتعبة التى تضطر عقلنا أن يكون تحت الخضوع لها ، وتجتذبه وتحطه من القيام فى بلده بهدوء ، وتشغله بتحريش (أى إغراء) الآلام الباطلة وأنواع الشهوات .

(٨٣) حبس الجسد والعمل داخل القلاية يقمع الجسد

من الآلام اللحمية ، أما الحواس فما يقدر أن يقمعها تماماً من الطموح إن لم يكن للقلب عمل خفي ، الذي هو بلد السكوت وبيت راحة وهدوء الحق بتحقيق. وكما نعتني أن نربط الجسد بالحبس فلنحرص أيضاً أن نكون في الحبس بلا سجن ، ونضبط حواسنا من الطموح في الأفعال التي تشتت الفكر وتجعله يطيش. وذلك لكي نتمكن من حبس فكرنا داخل قلبنا بذكر ربنا وبنظرة مجده. وان كانت هذه ليست لنا ، فإن الرجل يسلك بالصورة ، وكالبخار يتشتت ، وكمثل ما يذوب الشمع قدام قوة النار ، هكذا تنحل قدام الأفكار والآلام ، ولا يقدر السكون المظنون به أن ينفعه بشيء .

+ + +

+ +

+

الميمر الخامس

فى تدبير السكون

١ فى الأزمان القديمة كان آباؤنا القديسون يأذنون لكل واحد بالسكن فى الهدوء : الرجال والنساء، والصبيان والشيوخ، والحكماء والسذج. والذى يريد من الإخوة الرهبان أن يرضى سيدنا بتدبير سيرة السكون الكريم، فليؤمن ويصدق مواعيد ربنا، ويحمى نفسه (أى يلهبها) بمحبة المسيح رجائنا، ويدخل للسكون على اتكال ورجاء نعمته، ولا يخاف من شئ. وهوذا روح المزامير يعزيه ويشجعه قائلاً: لا تخف أيها المتوحد الجالس فى السكون على رجاء سيده، أورشليم الجبال محيطة بها والمسيح ربنا محيط بك؛ وأيضاً عساكر ملائكة الرب محيطة بمخافيه وتخلصهم، لأن كل واحد منا معه ملاك لازق به، يخلصه ويصلى عنه وينير عقله ويملأه أفهاماً روحانية ويعزيه فى الخفاء.

٢ المتوحد الذى يسكن فى الهدوء وحده، ونعمة الرب محيطة به، وملاكه فى كل حين يحرسه ويعزيه ويسليه، من أى شئ يخاف؟ مبارك هو ربنا يسوع

المسيح الذى وهبنا السكون! ولهوبى للمتوحد الذى يحبه ويثبت فيه، ويصبر على ضيقاته الأولى ويتنعم براحته الأخيرة، ويجاهد فى حروبه الأولى ويتكلل بأكاليله الأخيرة!

(٣) الذين هم غير دَرِبين ولا فاهمين للكتب ولا يرى الأفكار ولا حادّى الحركات ولا لطيفين (مدققين) بالمعرفة، بل سذاجة ما مختلطة بمزاجهم، وقلبهم بليد، وهم بُلْه فى الكلام والمعرفة. ويريدون أن يرضوا الله بتدبير سيرة السكون، لا ينبغى أن يخافوا من قتال الشياطين، أو يرتقبوا من مجازباتهم، لأن كل واحد حسب مايقدر أن يحتمل وحسب ماهو ملائم له. هكذا يُجرَّب من قتال أفكار الشياطين وأشكالها. ولا ينطلق على إنسان قتال فوق قوته ومعرفته ومنزلته. فإذا كان يملك فى قلبه حب سيده، ويسكن فى الهدوء، ويعبد المسيح ويصنع مرضاته، فإن محبة الرب تحفظه وتستره من كل مجازبات الشياطين، وتفرح قلبه وتنير نفسه وتقويه حتى يكمل بجميع كمال البر.

(٤) إعلم، أيها المتوحد، أنه حين تجلس فى قلايتك بغرضٍ وقصد مستقيم من أجل الله، ولاشتياق محبة

شئ آخر سوى التنعّم بمحبة سيدنا وتكميل وصاياه، تُعطَى لك قوة لحفظ بعض الوصايا التى تشاء عملها، أما الوصايا الأخرى التى لا يمكنك عملها فإن أجرك عنها محفوظ عند الله لأجل حزنك على قلة عملها، وعلى عدم اقتنائها. واعلم أنه وأنت فى قلايتك يمكنك أن تعمل الوصايا، وأما خارج القلاية فحتى ولأهذه الإرادة لمحبة الفضيلة تثبت فيك، لأن المحادثات البشرية واضطراب الأعمال تشتتها. ومن أجل أن الشيطان قاتلك بالضجر دفعة واحدة وغلبك وأخرجك من قلايتك كفاشل ومغلوب، فهو أيضاً خارج القلاية يتهرك ويعوقك ويعطلك من كل عمل الصلاح، ويملأ قلبك بالشرور، وربما يردك إلى العالم، إلى الهلاك الكلى.

(٥) عندما يجلس المتوحد فى القلاية ويعمل بالوصايا. يصير عمله دواءً للعينين، فينقى عينى نفسه من مهدأ الآلام الذى يغشاها فتنفتح. وينظر بعين إيمانه ربنا شمس البر الأعظم، ويرى الخيرات السمائية، ويتثبت بالرجاء يوماً بعد يوم، ويعمل الوصايا يقتنى أيضاً الفرح الروحانى.

(٦) لهو بل للمتوحد الذى ضغطته الآلام وعذبته

الشياطين ولم يشتق إلى العزاء الذى من خارج . لهوبك يا ابنى فى ذلك اليوم الذى يدركك فيه الموت وأنت وحدك فى قلايتك وتنتقل نفسك مع ملاكك إلى الفردوس إلى جوار الملائكة وأرواح الصديقين .

(٧) إن أكلت خبزك وحدك فى قلايتك ، يعطيك الله موهبة ممدوحة : أن تأكل المسيح مع خبزك وتشربه مع شربك بسكر وفرح روحانى . وإن اشتهيت المائدة التى من الخارج ، يعطيك الشيطان عطية سمجة : أن تأكل أخاك مع خبزك بالمثلبة . فاحذر الآن وكن محترساً . كن وحدك واثبت فى السكون لكى تنجو من العثرات . صوت إلهى قال هذا : « يا أرسانى اهرب من العالم فتحيا ، اهرب واصمت واستكن ، فهذه هى الأصول كى لا يخطئ الإنسان » . فلنحب الوحدة وهى تقدمنا إلى عدم الخطأ . ولا نرغب أو نخاف من أسباب المؤذيات التى فى هذا المسكن ، لأننا لسنا وحدنا بل معنا حارس ما يفوته شئ .

(٨) لهوبى للإنسان الذى يقبض نفسه من الانحلال ، ولا يميل لمجاذبات ومفاوضات الناس ، فإنه يحس بأشياء كثيرة لا يقدر أن يتعلمها من الدم (أى من إنسان) فالذى يشتهى الروحانيات هو بالضرورة يهمل الجسدانيات .

احذر من حياة الخلطة، لأنها معوقة لسائر أنواع التوبة. فالمحادثة مع كثيرين تعوق الحزن الذى من أجل الله، ذلك الحزن الذى يتحرك فينا من الإفراز الطبيعى ومن النعمة.

(٩) سَلِّم ذاتك لجميع ما ينالك من الضيقات كإنسان وضع فى نفسه أن يترك إلى الهاوية حياً. واختر لك موتاً مملوءاً ثقة وليس فيه خوف، لا حياة بشكوك وتقسُّم وراحة بجوار الساقطين والمنحلين والذين قد انقطع رجاؤهم. واذكر أنه من أجل الاضطهاد والهرب من الخطية والخسارة الكثيرة التى نالتك قد اخترت لنفسك الموت وليس من أجل البر. وفى هذه الساعة يشهد الله وملائكته (لك) بنظره ضيقاتك وشقاءك من أجل بغضتك الخطية وجحودك لها. وبثقة تبسط يديك إليه من أجل غفران الخطية.

(١٠) فليكن تدبير المتوحد متساوياً بوجود كل أعمال الفضيلة، كمقدار القراءة تكون الخدمة، وكمقدار خدمة المزامير يكون ضرب المطانيات، وكالمطانيات يكون الصوم وسهر الليل، ويقرن مع هذه جميعها العمل الخفى الذى للعقل، لئلا يكون الجسد يعمل والقلب سائب بطال.

(١١) العمل الدائم ولو أنه قليل، فهو لأجل دوامه يربح كنوزاً عظيمة. وأنا أدلك على عمل يتقدم فيه الإنسان بسهولة إذا ملَّ الجسد ولم يقدر أن يقوم ليكمل مطانيات العادة من أجل ضعفه، ويتعطل عن الصلاة التي تكمل بالجسد، والتي منها تتولد الصلاة القلبية. خُرّ على وجهك دفعات كثيرة واثبت في الصلاة وأنت جالس والكتاب بيدك، لكي تمتزج مفاوضة القراءة مع الصلاة وتُنير من الاثنين وترتفع لنعم النفس. فتحلو لك الصلاة لأجل القراءة، وتنير في القراءة بمفتاح الصلاة. لأنه بالصلاة ينفتح باب الأفهام، والدهش بالأفهام يثير شهوة الصلاة حسب التاؤريا التي فيها. وإن كان الجلوس في القلاية فقط ببطالة بغير عمل، وحفظ الحيطان لأجل اسم المسيح، هو انتظار رجاء عظيم، حسب قول أحد الآباء، فكم بالأكثر الذي يستعمل هذه الإفرازات في نفسه من أجل ذكر الله الدائم، إنه ينال أشياء عظيمة.

(١٢) بدون الصلاة والتضرع لا تمد قديمك للمسير، وبالأكثر في الطرق المظلمة. والطلبة من فمك، واتبعها بالاعتراف بضعفك وعدم معرفتك، لكي من أجل الاتضاع تُحمل بالرحمة ولو لم تكن مستحقاً، لأن الاعتراف والاتضاع يكملان موضع عوز العمل. فإذا

لم يكن لنا أعمال ينبغي أن نكون محزونين في ضميرنا ومداومين ذكر خطايانا بعقل منحط منسحق قدام الله ، وهادئين ومسالمين لكل الناس ، ومنقبضين إلى ذواتنا بعدم الضحك والمزاح ، ويكون كلامنا بالصالح على كل أحد ، مع الشكر على التجارب والصمت بحكمة وحفظ الأعضاء مرتبة ، وأن نتذكر في كل وقت أننا مائتون على كل حال ومنتقلون من هذا العالم . وهذه الأشياء ما تطلب عملاً بالجسد ، بل حُسْن الضمير ، وهي غير مفتقرة لعمل الجسد . ولا بعمله تُقام ، فحتى في المرض والضعف يُستطاع اقتناؤها . فالمتهاون بها ولا يقتنيها بخفة ضميره . كيف لا يلام من الله العادل ؟ لأن الله ليس محتاجاً لكثرة عمل ، بل هو يريد منا فضيلة الإرادة . لهو بي للإنسان الذي يعرف ما ذا يُولد من محبة البشر ، والرحمة إلى أين تصعد النفس .

(١٣) اِعلم ، يا أخي ، أن أفضل كل صلاح يفعله الإنسان في هذا العالم هو الصلاة الطاهرة . وإن لم يمت الراهب من كل أحد ، وينقبض في السكون إلى ذاته كالميت في القبر ، فهو لا يستطيع أن يقتني هذه (الصلاة الطاهرة) . لأن الصلاة الطاهرة تتطلب فراغه من جميع الأشياء ، لكي يقوم قدام الله بعفة وبلا طياشة في وقت الصلاة ، والفكر مجموع من كل مكان ومنقبض إليه ، وهو يشخص

بالله فقط بسكون حركاته ، ويكون متشوقاً لملاقاة معرفة الله بمداومة صلاته إليه .

(١٤) إذا ما ضعفت الآلام النفسانية وصمتت ، فإن الإنسان يغلب الشهوات الجسدانية أيضاً بسهولة .

(١٥) الميتوتة الجسدانية هي أن يتغرب الإنسان من جميع معارفه ومن بلده وأقرباته ، ويمضي إلى أرض غريبة ويختار لنفسه موضعاً هادئاً مُستكناً من كل شلتق (أي اضطراب) ، ويعوز الاحتياج الجسداني يسكن وحده منقبضاً إلى قلبه وعارماً من جميع خلطة الناس ومن المحادثات والتعزيات المنظورة ، وبالنوح وبالبكاء ويوجع القلب يسأل الله أن يطهره من الشركة مع الخطية ويقلع منه أعضاء الإنسان العتيق . وهذه الميتوتة تولد لنا الميتوتة النفسانية .

(١٦) والميتوتة النفسانية هي أن لا يشتاق الإنسان في قلبه لشئ من خيرات هذا العالم ، ولا لحياته الزائلة ، ولا يتنعم بطياشة فكره في الشهوات الأرضية . بل يكون عقله على الدوام متشوقاً متلهفاً بلا هدوء إلى الأمور المزمعة ، وجميع هذيذه وضميره وأمل قلبه في الأشياء التي ستكون للبشر بعد القيامة ، ويهدس ويهذ في كل أوقاته بالحياة الجديدة . فهذه هي الميتوتة بالحق للذي

قد مات مع المسيح ، وهى لا يمكن أن تكون بدون فعل النعمة ومعونة الروح القدس . والميتوتة التى تكون هكذا ، هى تولد لنا الميتوتة الروحية .

(١٧) التنعم الروحانى الذى يكون من العمل لا يحسب مع الفضيلة ، لأنه سيد الفضيلة . لأن الفضيلة هى كل عمل يكون فى الظاهر ، ويكمل بحواس الجسد من أجل الله .

(١٨) والمتوحد ليس له عيد فى الأرض ، لأن عيده هو النوح . وعوض الأعمال التى يفتخر بها الآخرون بالانشراح بعضهم مع بعض ، هذا عزاؤه هو شقاؤه فى السكون .

(١٩) العلك تظن يا أخى أن عدم المفاوضة والنوح وحزن القلب والتمرغ فى كل وقت بضرب الطانيات قدام الله لا يُحسب عملاً ، بل تقول إن الصوم وكثرة التلاوة هى العمل ؟ أما تثق أن عمل القلب والتجلد فى الوحدة هو غاية العمل ؟ وأنه سعيد وقريب من الله ذاك الذى يصبر على صعوبة الوحدة جميع حياته ، ولو أنه يأكل كل يوم وينام ، ولو تنهد على ذاته دفعة واحدة كل يوم بحزنٍ وهو ملقى قدام الله ؟ فى الحقيقة إن عمل مائة أخ يصومون ويصلون وهم فى السجس والمفاوضة ، ما يساوى عمل متوحد واحد فى السكون ولو كان ضعيفاً ، على أن يكون عارماً محارثة الناس ومتجلداً

داخل الباب، وليس من يدخل إليه ويخرج. ولست أعنى بقولى هذا الذين يمسكون السكوت بالاسم ولهم من يدخل إليهم ويخرج كل يوم، بل الذين يسدّون بابهم ولا يفتحونه من يوم الأحد إلى يوم الأحد، وليس لهم حديث ولا مفاوضة مع أحد، ولا يصادقون إنساناً. وإن كان هناك أخ كفوٌ لهذه النعمة. وقد أخذ هذه الموهبة من الله، ولكن أحدٌ من رؤساء ومدبرى أديرة الإخوة - من أجل نياحٍ ما أو عملٍ جسدانى، أو من أجل حسد - يعوقه عن هذه الموهبة، فعليه دينونة قدام الله، وهو مزمع أن يعطى الجواب قدام كرسى المسيح.

(١٠) لا تحب أن تُعتق من عبودية السنن والقوانين فى سيرتك، إلى أن يكتب الروح حريتك من العبودية. وتحس به أنه قد كتب ذلك على عقلك بلا تقسّم (أى بلا شكٍ).

(١١) إنا قمت فى الخدمة بحَرس نفسك وجسدك - تلك التى فيها ربوات كنوز مخفية للذين يصلون بإفراز. فاسأل الله أولاً خفية فى قلبك أن يفتح قدامك ينبوع الحياة الذى من عادته أن يفيض فى هذه الأوقات على الأنفس التى جحدت العالم الزائل، والذى به تنظر كل وقت ميتونة

يسوع على أعضائها الخفية . ثم رتل بهدوء بغرض الصلاة ، ولا تعتنِ بكثرة المزامير ، بل أن يُعطَى لك مفتاحاً ، ولو كان لفظاً واحداً ، لكى تدخل إلى كنز تفهّمه الروحانى ، الذى يفتح لك بنعمة الروح القدس . وإذا ما سجدت عند بدء الصلاة ، فاسأل الله بوجع قلب أن يعطيك فيها صبراً ، وألا يحصل لك فيها قتال سجس ، قائلاً : « أعطنى يارب حركات نيرة شاخصة فيك بجميع هذه الخدمة بكل لفظة تخرج من فمى » . وإذا ما دَقَّ فكرك وتلطَّف* من غلظ الهذيذ ، وبدأ يُصارف النور ، فمن هنا افهم أنك بسهولة تقبل دهش الكلام ، إن تلاوة أو كتابة ، وللوقت يتحرك القلب بالفرح ويسكت اللسان . ولا تطلب دليلاً آخر على ظلام نفسك سوى عدمك من هذا السرور الذى ذكرته .

(٢٢) يا أخى احبب الوحدة ، ولو كنت عاجزاً عن جميع حقوقها . صلاة واحدة يصلى بها الإنسان وحده هى أخيرُ من مائة صلاة يصنعها مع الناس . وبالحق إن عمل مائة يوم صوم وصلاة يصنعها المتوحد بسجس ومفاوضة ، لا تتوازن نوم ليلة واحدة فى الوحدة !

* أى يروق الفكر ويصفو ، فيتخطى كثافة الألفاظ ليتعمق فهم معانيها الخفية .

(٢٣) داوم أن تقول فى صلاتك : " يا الله ، جُد علىّ بنوح القلب ، يارب استأصل مفاوضات العالم من قلبى ". هذه الصلاة تدخلك فى أسرار المسيح إن اعتنيت بتفسيرها فى نفسك .

(٢٤) بدون السكون ما يتضع القلب ، وبدون اتضاع القلب ما يتسقى من الحركات المتواترة .

(٢٥) إذا ما جلست بين صلوات الأوقات لكى تفاوض ذهنك بالهذيذ بالله ، افتكر أيضاً ماذا كنت ولائ رجاء رُعيت من قبل فيض مراحم الله . واجعل لك فُسحة بين صلاة الليل وصلاة باكر (تخصصها) لمثل هذا الهذيذ الذى يصلح لتربيتك بمعرفة الله فى كل أيام حياتك ، لأن هذا أيضاً هو جزء كبير فى عمل السهر . قسّم الأوقات النهارية ، منها (وقت) للخدمة ومنها وقت للهذيذ ، وإن وجدت نسحة تكفى فلنقاوة الحركات . وإن كان العقل مظلماً زِدْ من القراءة التى توافق فى ذلك الوقت ، لأنه من ههنا يكون ينبوع النقاوة الذى تفيض منه مياه طاهرة . فإذا ما اتحد الهذيذ بالصلاة بنقاوة ، عند ذلك تكمل كلمة السيد : « أنه حيث يكون اثنان أو ثلاثة مجتمعين باسمى فأنا أكون فى وسطهم » ، أعنى النفس والجسد

والروح ، أو العقل والهذيذ والصلاة ، وينتهى أمر تلاشتهم إلى الدهش .

(٢٦) إلى أن يتضع الإنسان ماتدنو منه المعونة الإلهية، لأن نعمة الله قائمة عن بُعد ، وتنظر إلى الإنسان على الدوام فى وقت الصلاة ، فإذا ماتحرك فيه فكر انتصاع ، ففى الحال تدنو منه النعمة ومعها ربوات من المعونات. وهذه تُعطَى فى وقت الصلاة أكثر من بقية الأوقات ، ولهذا يقيم الشيطان مع الإنسان قتالاً فيها (أى فى الصلاة) حتى لايدنو من الله بأفكاره .

(٢٧) بقطع الرجاء فى حياة الجسد ورفض جميع مفاوضاته ، يلقى (أو يجد) الإنسان بسهولة قنية النفس التى تفوق حواس الجسد . فإذا كان الضمير ثابتاً فى رجائه ، ولو أن الجسد قد يضعف ، فإن النفس ماتتغلب ولا تنقص غناها . البكاء الدائم هو إذا ماضعف الضمير وانحط الجسد وتخلف عن العمل.

(٢٨) الصلاة الطاهرة هى أن لايطيش العقل فى الأشياء التى تحركها الشياطين بالأفكار ، أو التى تحركها الطبيعة من التذكارات ، أو التى تكون من تحريك المزاج. والصلاة التى لاتتبعها تدابير حسنة هى نسر قد انتتفت أجنحته .

(٢٩) لو أن إنساناً وصل إلى عرش اللاهوت بالاستعلانات ثم تهاون بالمزامير، فإنه يُسلَّم فى يد الشياطين، لأن حد العظمة يبدأ فيه من هنا، كما لو كان قد ارتفع عن رتبة الذين يستعملون المزامير.

(٣٠) ليس إنسان محبوباً عند الله، ويُعطَى سؤله سريعاً، كمثل الإنسان الذى يطلب من أجل زلاته وغفرانها، ويطلب قوة ومعونة لتقويم طريقه - فبهذا النوع يُبطِل الدينونة التى عليها، وحتى لو كانت خطاياه صعبة فهو بغير شك يأخذ سؤله.

(٣١) الذى هو كامل فى القامة وفيه اشتياق إلى الله، هذا بعد خروجه من العالم لا ينبغى أن يقيم كثيراً فى المجمع، بل إذا ما تعلم ترتيب وتصرف الإخوة وطقس هذا الإسكيم ونوع تواضعه، يفرز نفسه فى قلاية منفرداً، لئلا يقتنى عادة الخلطة مع كثيرين، ما خلا مفاوضة شيخ واحد مشهود له بحُسن السيرة ومعرفة عمل السكون، ومعه فقط يتحدث لكى يتعلم تدبير الوحدة. ولا يتفاوض أبداً مع أى إنسان آخر.

(٣٢) ليس أن الإنسان إن لم يتطهر بالكمال لا يحس بالخيرات الروحانية وبدلائل الحياة الجديدة، بل إنه يوماً بعد يوم، حسبما يتطهر الآلام، يرى إشارات الطهارة.

وكل ألم يغلبه يشرق الصلاح الموضوع قباله فى الحال، وبمقدار ما يتطهر من الخطايا هكذا ينعتق الضمير من ربا الهمات التفكير فيها . وعلى هذا الحد يشرق شعاع المعرفة فى قلبه. ولمهارة النفس هى التعرى من الاهتمامات الجسدانية، ومن الهذيذ بالأفكار اللحمية .

(٢٣) الذين هم بطبيعتهم ودعاء وهادئون وذوو حركات نيرة مفرزة ، معلوم أنه سهل عليهم (انسكاب) الدموع ، لأنه حيث يوجد تواضع القلب بإفراز، لا يقدر الإنسان أن يمسك نفسه عن الدموع ، فمن غير أن يريد يفيضها القلب على الدوام من الحزن الحار وانكسار القلب الذى فيه .

(٢٤) هذه الأنواع الثلاثة يقتنيها الإنسان من السكون : حب الله ، الدهش بأسراره ، وتواضع القلب. وليس حزنٌ أحرَّ . يارب أهلنى أن أشرب من هذا الينبوع . ولكن الذى ماله سكون فهو ما يعرف ولا واحدة من هذه الثلاثة أنواع ، ولو كانت له فضائل كثيرة، فلا حب الله يقدر أن يعرف ماهو ، ولا معرفة الروح ماهى ، ولا التواضع الحقيقى الذى من القلب . وأنا أشهد لكم بالحق أنكم إن كنتم عارين من السكون، ولو أنكم بكل أعمال الرهبنة تتعلقون بجفون عيونكم، فما

تقدرون أن تؤهلوا للاقتراب من هذه الأسرار التى تُعطَى للعمّالين فى السكون .

(٢٥) لا تحسب أن الثبات الكثير فى السجود قدام الله هو بَطالة ، لأنه ليس شئ أفضل منه فى جميع الفضائل . لأن به يُقتنى تواضع الجسد والعقل ، وبه يكون تبطيل الآلام الردية وقطع الشهوات ، وبه يُوجد استعداد النفس إلى الخروج من الجسد بالسرّ ، واشتياق كثير لحب الله ، وكل الخيرات الحاضرة والمزمعة ، وهو حد سائر الأعمال وحابس جميع الوصايا وكمال كل فضيلة .

(٢٦) عمل القراءة هو أيضاً مرتفع جداً ، لأنه هو الباب الذى به يدخل الذهن إلى الأسرار الإلهية ، ويأخذ قوة حسب نقاوة الصلاة ، ومنه أيضاً يتقوى الهذيذ الذى هو مبدأ هذه السيرة . وبدون القراءة لا يمكن للذهن أن يدنو من الله ، لأنها ترفع العقل وتقيمه عند الله كل وقت ، وليس عمل يأتى به الإنسان إلى قدام مثله ، هذا إذا كانت قراءته من أجل الحق .

(٢٧) عمل الجسد مع بَطالة العقل لا منفعة فيه . لأنها صادقة هى كلمة القديس مرقس : إن كثيرين يعملون البر ، وبالأفكار الرديئة يفسدون أعمالهم الحسنة . وعلى كل حال ، الذى ضميره بَطّال من العمل الخفى المكتوم ،

ومن المداومة بهمِّ المعرفة والهذيذ، فأفكاره مُنحلّة فى الأبالميل. لأنه بعمل العقل يستضئ (الضمير)، حتى لوكان الجسد بلاعمل أومريضاً جداً. لأن عمل العقل يُيبس الجسد وينشفه ويجعله مثل العود اليابس.

(٢٨) الذى مايقبل، فى وقت الخدمة، فتال الثقل والملل والكسل، وبقية أحزان القلاية، ويصبر على مقاساتها بفرح، كمثل أنها عمل تام لله، بل يريد الراحة منها بالكمال، فهو من غير أن يشاء يُسلّم ليد شيطان الزنا، وعوض ذبيحة جسده الطاهرة التى كان من عادته أن يقدمها لله، فإنه يذبح للشيطان ذبيحة نجسة من أعضائه.

(٢٩) صدقنى يا أخى، إن الملل والضجر وثقل الأعضاء والتكدر وسجس العقل، وبقية المحزنات الحادثة على النُسّاك فى جلوس السكون، هى عمل تام لله. ولاتظن أن الاستضاءة فى خدمة ونقاوة الضمير والتنعّم بسرور القلب والعزاء الذى من الدموع الحلوة والمفاوضة النقية مع الله، لاتظن أن هذه فقط عمل إلهى. بالحق وحسب رأيى أقول: إنه حتى أفكار التجديف والمجد الفارغ وحركات الزنا السمجة التى تحدث باضطرار على المتوحد فى السكون، وحزنه من أجلها، ولو أنه يُوجد مغلوباً قدامها، ويصبر ويتجلد، ولايخرج من

قلايته ، فهذه أيضاً تُحسب له كمثل ذبيحة طاهرة وعمل إلهى مقدس ، ماخلا العظمة والكبرياء فقط . لأنه تجلد فى جهاد الرب . وصبر على اليمينيات واليساريات العارضة عليه داخل المصاف ، إذا لم يكن حدوثها بسبب انحلاله وإهماله ، بل تتواتر عليه بنوع القتال فقط ، هذا إن لم يغلب ويخرج من المصاف ، الذى هو الجلوس الانفرادى فى القلاية .

(٤٠) لأن الذى يشتهى الحبس والسكون ، ويفرد نفسه من مجمع الإخوة ، ينبغى له أن يكون هذا غرضه وقصده : أن يقتنى بسكون الجسد سكون النفس ، ويجتهد أن يقتنى البكاء على خطاياه القديمة ، والنوح على زلاته فى كل يوم ، وهذا ماقاله أولئك السوّاح للقديس مقاريوس : « إن لم تستطع أن تكون مثلنا ، فاجلس فى قلايتك وابكِ على خطاياك » . ولأجل تجربة حروب الشياطين ، قال أنبا انطونيوس لبولا الساذج تلميذه : « اجلس فى السكون لتأخذ تجربة حروب الشياطين » . كما قال يوحنا النبى التبايسى : « إنه لا يمكن للإنسان أن ينظر نفسه ويفهم آلامه من غير تدبير السكون » . كذلك قال أنبا مقاريوس : « ينبغى للذى يجلس فى السكون مداومة تذكار الله ، ونسيان كل ذكر ، وأن لا يكون عنده ذكر لأى إنسان فى قلايته » . وقال يوحنا التبايسى

أيضاً عن الجهاد مقابل الآلام والشياطين : « إن الحكمة الروحانية هي عضو عظيم لإنسان الله . ولا تقتنى هذه الحكمة بدون تجارب المصاف (أي الجهاد) ». وقال العظيم في العارفين أوغريس : إذا ما جلس الإنسان في السكون، وصبر على القتال والتجارب نال طهارة القلب . وهذه تقتنى بعدم جميع أفهام المنظورات ». وقال الأب إشعياء ذو الشيبة المباركة عن سكون العقل : « إن السكون يولد السكون ». وقال الأب مرقس : « الصلاة الطاهرة (تقتنى) إن أخذت موضعاً حصيناً للصلاة (أي السكون) ». فلا تقبل معرفة الأفعال التي تُعطى لك من العدو ، لئلا تضيع تلك العظيمة . بل ينبغي أن تطعنه بسهام الصلاة ، وهو محبوس في الموضع السفلي بالسكون ، لأنه يتحايل أن يجلب لك غنيمة (من المعرفة) لكي يبعدك من التدرع بقتاله .

(٤١) وقد أظهر القديس مرقس أيضاً أعظم العطايا التي يحظى بها المتوحد يوماً بعد يوم ، إن هو ثبت في السكون. وقال : « الآن لنبدأ بالعمل . . وما هو هذا العمل ؟ هو السكون وهدم الأفكار والصلاة بلافتور ، وهكذا يأتي إلى قدام ، وهو لا يجد رجاءً بالله فقط ، بل وإيماناً حقيقياً وحباً لا غش فيه . ويقتنى محبة الإخوة ، وعدم تذكار الشرور ، ونسكاً وصبراً ومعرفة

داخلية وخلاصاً من التجارب ، ومواهب روحية وشكراً قلبياً ودموعاً محزنة ، واحتمالاً للضيقات العارضة وغفراناً لقريبنا بغير غش ، ومعرفة الشرع الروحاني ووجود عدالة الله وحلول الروح القدس وعطايا الكنوز الروحانية . هذه جميعها ، بواسطة السكون والصلاة يجود بها الله على المتوحدين . ومن أجل اقتنائها يشتهي الإنسان السكون.

(٤٢) إن لم يقطع الإنسان نفسه من كل تذكار ومن كل اهتمام ، ويبتعد من كل محادثة ، ويداوم السكوت بغرض مستقيم وبمحبة الأعمال ، فإنه لا لخطاياه القديمة يذكر ، ولا لزلاته في كل يوم ينظر ، ولا لآلامه يفطن ، ولا لمجاذبات الشياطين يفهم ، ولا للجهاد مقابل الآلام والشياطين يستعد ، ولا لنقاوة القلب يصل ، ولا الصلاة الطاهرة يقتني ، ولا الصلاة الروحانية يستحق ، ولا لنور العقل المقدس ينظر في ذاته ، ولا نور مجد المسيح باستعلان الروح القدس يشرق داخل نفسه . هذه جميعها خارجاً عن السكون ما تُعطى لأحد . أما الذين يصبرون على ضيقات السكون ويداومون فيه ، فإنهم ينالونها جميعها . وإن كان أناس يخرجون من هذا العالم وما يالونها هم هنا - لئلا يتعظموا ، أو من أجل أسباب أخرى مخفية عن علمنا - فإنهم في ملكوت السماء يتنعمون بهذه جميعها من أجل حبهم لسيدنا وصبرهم على السكون لأجل محبته .

(٤٣) والذين يتجلدون (في السكون) يبلغون إلى طهارة القلب والصلاة الطاهرة، ولأجل أسباب خفية لا تعطى لهم الصلاة الروحانية، ولا يؤهلون لاستعلان المسيح. ولهذا حذّر الآباء أنه، من دون مرض أو ضرورة ما، لا يتكلم المتوحد مع أي إنسان. لأنه إن لم يقبض حواس الجسد وبالأكثر نظره وسمعه ولسانه، فهو ما يجد سكوناً لنفسه. لأن العقل ما يهدأ بدون الجسد، كما قال القديس مرقس. ولهذا ينبغي أن نتجرد من النظر والسمع مع باقي الحواس، كما قال يوحنا التبايسي. لأن المتوحد المبتدئ إن لم يعوّد نفسه أن يُسكت حواس جسده، بل يتكلم بلسانه مع الإخوة أو مع خادمه، وينظرهم بعينيه ويسمع بأذنيه كلامهم. فما هي الفائدة من الحبس؟ أو كيف يذوق حلاوة السكوت إن لم يسبق ويذوق مرارته؟ وكيف يذوق هذا إن لم يؤلمه الضجر؟ وكيف يُقاتَل بالضجر إن كان يُدخل خادمه إليه، أو يتكلم معه من الطاقة، أو مع الذين يطلبون أن ينظروه؟ فلا قتال صعوبة الشهوة، ولا تخويف الليل، يمكنان منه أيضاً. لأن كل إنسان حسب مقدار سكونه وحبسه وتحفظه، كذلك تكون حروبه وعطاياه.

(٤٤) ولما نظر الآباء تضاعف الوجوه (أي اختلاف القدرات)، أذنوا لكل إنسان أن يتدبر حسب قوته

وحسب معرفته وحسب حرارته وحسب معونته من النعمة. على أن يكون حبيباً "ساكتاً". لأنه من دون السكون والوحدة لا يستحق أن يُدعى وحيداً مع ابن الله الذى أهّله بالنعمة لكرامة اسمه. ذاك الذى ليلاً ونهاراً، بحزن ودموع، يسأل الله أن يغفر له خطاياه ويجود عليه بقوة الروح القدس، لكى يكمل حبه ويحفظ وصاياه. وإن كان ما استحق بعد لدموع النعمة، ومفتقراً أيضاً إلى دموع ندم النفس، فإن حزن قلبه وندامة نفسه يقومان له موضع الدموع. فلا يهدأ ولا يبطل من السكون والصلاة والطلبة حتى يحس خفياً بيقين الرجاء، أنه قد غفرت له خطاياه، واشتعلت نار محبة المسيح فى قلبه، وأخذ قوة لتكميل وصاياه، وتشجّع على الآلام، وهدأت أفكاره، وخجلت المجاذبات، وشبع من نظر وجه سيده. هذا هو المتوحد، وهذا هو القصد من الوحدة.

(٤٥) فضيلتان تحبسان وتجمعان كل الفضائل، ومنهما تقوم وتكمل كل سيرة العقل، ومنهما يقتنى الإنسان طهارة العقل، وهما اللتان يحتاج إليهما ترتيب سيرة السكون، وهما: الصلاة بلا فتور والاطمئنان، وهم لمح أفكار الآلام ومجاذبات الشياطين حالما تظهر ويحس أنها قد تحركت فى القلب. هاتان الفضيلتان.

وهذان العملان اللذان بهما تتجمع وتنحصر سائر أعمال الفكر وفضائل النفس جميعها ، تولدان موهبتين وعطيتين روحانيتين ، محدودة بهما جميع المواهب الإلهية ، ومحصورة فيهما جميع عطايا الروح ، لأنهما لا يُعملان بالجسد ، ولا يُفلّحان بالنفس ، بل إنما يَحظى بهما الإنسان إنعاماً بقوة الروح القدس ، وهما ، حركة روحانية تحرك بلا فتور حركات النفس بحرارة حب الله الكامل ، ونظرة نور مجد ربنا يسوع المسيح باستعلان الروح القدس .

(٤٦) إن كنت يا أخي ، تحب تدبير السكون ، وبنير عقلك وتتلطف حركات نفسك وتدقّ ، لتفرس في حركات الآلام المنتبهة فيك من تذكار خطاياك القديمة ، ولترصد ما يأتي عليك من مجاذبات الشياطين التي تسمى أفكاراً شيطانية ، حسب قول الأب إشعياء ومار أوغريس ، تلك التي ليس لها عليك سلطان ، إلا لكي تُذكّرك بالخطية وتُخضعك بمجاذباتها للتنازل معها ، إما بذكر امرأة بسماجة الشهوة ، أو بتذكر أخاً أحزنك ، مع بقية الآلام ، فتعلمْ كيف يكون القتال والجهاد معهم ؛ لأنه ليس في سائر المعارف كمثل أن يفهم الإنسان آلامه ويقاتل معها ويستعبدها لسيادة إرادته . فمن هذا المصاف يقتني الإنسان

سريعاً نقاوة القلب وينظر الله .

(٤٧) اقرأ وافهم واعرف ماهى طهارة العقل ، ومما نُفتنى ، وماهى الآلام ، وما الذى يولد منها ، وبأى أعمال وبأى جهاد يغلبها الإنسان ، لكى تقهر كل قتال فى وقته ، إلى أن يُعطى لك الإفراز الروحانى ، الذى به تقدر أن تفرز بدقة ، بلا ضلالة ، مجاذبات الشياطين من أفكار الآلام . واعلم أنه مادمتَ متيقظاً حريصاً فى صلواتك ، ومجتهداً فى تكميل قوانينك فى السكوت بلا طياشة ، إن تحركت فيك الأفكار الرديئة ، فاعرف بالحقيقة أنها ليست هى أفكار آلامك ، بل هى مجاذبات الشياطين . لأن أفكار الآلام التى من العادات القديمة لا تتحرك فى الإنسان طالما كان متيقظاً فى عمله الروحانى ، وإن هى تحركت فسرعان ما تضمحل لأجل حرصه فى عمله وبغضته لها . أما مجاذبات أفكار الشياطين ، فإذا كان الإنسان متيقظاً مجتهداً فى عمل البر ، وخدمة المزامير ، وصلاة أبانا السمائى ، وكلام التلاوة التى يرتبها من ذاته ويصلى بها بغير فتور إن أكل أو شرب أو جلس أو مشى ، هذه الأعمال والصلوات تحرك الشياطين بالحسد عليه ، لأنهم يخافون لئلا يقتنى قبالتهم سلاحاً ، ولأجل هذا فهم على الدوام يُظهرون له مجاذباتهم متواتراً ، ويحركون فيه الأفكار ، لعله يميل إليها ويتهاون بعمله .

لأن هذه الثلاثة أشياء التي هي : خدمة المزامير، وصلاة أبانا السماوي، وصلاة التلاوة التي يُركّبها الإنسان ويطلب بها الرحمة والعون والخلاص ، هذه الثلاثة أنواع من الصلاة هي كمثل ثلاثة سهام تطعن الشياطين وتقتلهم . أما إذا كنت لهاشاً بالأفكار ، ومتهاوناً في تكميل خدمة الأوقات وقوانين السكون ، فإن أفكار الآلام تتحرك في قلبك وتضغطك أكثر من مجاذبات الشياطين .

(٤٨) ومع معرفة الآلام والجهاد مع مجاذبات الشياطين وهدم أفكارك الخطية ، واعتنائك بنقاوة القلب وحرارة الضمير، تعلّم بالأكثر، بمحبة زائدة وأعمال مغرزة بالعقل ، الصلاة التي بلا فتور ولا لهياشة ، لأن بها محدودة كل سيرة العقل التي تطلبها شريعة السكون ، التي هي كما قلنا : الصلاة التي بلا فتور وهدم الأفكار . فلا ينبغي أن يتنعم الإنسان أبداً بإرادته ، بانحلاله وتنازله مع الخطية بأفكاره ، ولو كان من اضطرار الجهاد وصعوبة العناد. بل يقتني للخطية بغضة شديدة ، لكي يحلوله تدبير السكوت ، ولا يتبعه الضجر .

(٤٩) وإن كنت تقتني هذين الأمرين ، أعني الصلاة

التى بلا فتور ولا طياشة ، وطهارة الأفكار، فأنت تحظى بجميع سيرة العقل . ولكن أولاً أتعِبْ جسدك ونفسك وقتاً معلوماً بالصلوات التى بلا فتور . ولو أن بطيش فكرك ، فبعد هذا تؤهل للصلاة التى بلا طياشة . لأنه إن لم تتعب جسدك حسب قوتك ، وتفنى نفسك كل وقت وفى كل مكان وكل فعل وحال ، ولو أن فكرك يطيش لأنك بعدُ مبتدئ ، فلن تُعطَى لك الصلاة التى بلا طياشة . وإن لم تعوِّد نفسك أن تهدم أفكار الآلام والشياطين ، فلن يُعطى لك جمع العقل من الأفكار الطائشة . لأن بهاتين الفضيلتين (أى الصلاة بلا فتور وطهارة الأفكار) ينحصر ويُحد جميع تدبير الضمير ، وهما مرتبطتان الواحدة بالأخرى ومركبتان ومتحدتان معاً . وكما أن لجميع الجسد شئ ، ولطبيعة النفس شئ آخر ، ولأجل اتحادهما معاً صارا لطبيعة واحدة ، ومن دون اتحادهما لا يكمل لهما فعل ، هكذا أيضاً ، إذ الصلاة شئ وطهارة الأفكار شئ آخر ، ولأجل اتحادهما واشتراكهما هما الاثنين ، يقام منهما تدبير (واحد) يُسميه آباؤنا سيرة العقل ، فإن كل واحدة منهما محتاجة لتكميل الأخرى ، حسب قول القديس مرقس : « إن النية الصالحة بالصلاة توجد ، هكذا أيضاً الصلاة بالنية الطاهرة توجد »

(٥٠) عَوِّد نفسك واغصب ذاتك لجمع أفكارك فى خدمة المزامير، وبالأكثر فى الليل، لكى يأخذ عقلك حسّ وفرح الروح المكنوز فى المزامير، فإن أُهلت لهذا، فلن تشبع من السكن فى الهدوء. واعلم أن الذى يتعب بأعمال الجسد فقط داخل الحبس، وهو لايعمل بالضمير، بل يطيش ويطمح، فهو يتهاون أوقاتاً. وأما الذى مع عمل الجسد يعمل بالفكر أيضاً، فهو لايقدر أن يتهاون، لأن عمل قلبه مايتركه يستريح. فلهذا عظيمٌ هو عمل العقل وتعبٌ جداً ومديد، وحسب عِظم عمله هكذا أيضاً كثرة منافعه.

(٥١) إن اخترت عمل الجسد والعقل، فلا تتضجر ولاتزد على عمل العقل أعمالاً جسدانياً فوق قوتك ومبدأ منزلتك. بل قليلاً قليلاً ادخل وغُصْ فى تدبير العقل، وهو يكون لك معلماً ومرشداً فى كيف تحترس من الموافقة فى قلبك مع الأفكار الشيطانية. هوذا أبوك الأب إشعياء، لكى يعلّمك ويشجعك ويجذبك لعمل العقل، يقول لك: «أنت، يا ابنى، اهرب من أهوية قلبك، هذه التى تقيم عليك القتال، وربنا يكسر جميع أعدائك». ومعنى قوله: إنه إذا كنت فى السكون، وأنت خالٍ من الطياشة فى الأفعال، وعادم من مفاوضة الناس، ومتفاوض مع سيدك بعمل وصاياه

تغار منك الشياطين بحسدها، وتجذبك للتنازل فى الشهوات، لكى تُخيِّبك من حب سيدك، ومن العزاء الروحانى، ومن الأجر لأجل سكونك وعملك. فاصنع هكذا مثلما أقول لك، كل وقت تحرك الشياطين فيك فكراً ما، إن كان شهوانياً أو غضبياً أو مجداً باطلاً، أو مهما كان من الآلام، فلا توافقهم ولا تتنازل معهم، ولا تتركهم يدخلون قلبك وينعِّمونه، بل اذكر عاجلاً ذلك النعم المحفوظ لك عند الرب، وانتهر تلك اللذّة الأليمة، واغمض عينى فكرك عن النظر فى ذلك الفكر الردئ الشيطانى، ولو أن لذّة الخطية تجذبك، اغصب نفسك لكى تهرب منها وتنتقل بحبك إلى سيدنا وتسأله أن يمدك بالمعونة لكى تغلب. فإذا نظر الله إرادتك، أنك حتى ولا بالفكر تحب أن تتنعم بالخطية، وهذا لأجل التنعم بمحبته، ففى الحال يشير للملاك القديس التابع لك، فيطرد الشياطين المقاتلة معك بمجاذباتها، كمثل الغبار من قدام الريح العاصف. ولهذا قال لك أبا إشعياء: اهرب وفِرّ من مشيئات قلبك. أعنى أنت فقط اغصب نفسك قليلاً، وأظهِر للشياطين بغضتك لمجاذباتهم، ومحبتك لسيدنا، وهو يطرد عنك الشياطين، ويقطع مجاذباتهم من قلبك، وينير ضميرك، ويملأ نفسك

أمناً وسلاماً وعزاءً من النعمة .

(٥٢) لاتخف أيها المتوحد محب السكون ، والمقاتل حتى الدم فى جهاد البرمع الخطية لأجل محبة سيده . ليس يبطئ كثيراً زمن جهادك ، بل بعد مدة من السنين معروفة ، إذا ما إختُبرت إرادتك الصالحة وحبك الصادق للرب بالصبر فى الجهاد والقتال مع أعدائه ، فمنذ ذلك الوقت ، ليس كل وقت تقاتل معلم الشياطين يمدك بالمعونة لكى تغلب ، بل إنه إذا انقضى زمان جهادك يطرد عنك الشياطين كلية ويقطع من قلبك جميع مجاذباتهم . وعوض تلك الأفكار الكثيرة التى كانت تتحرك فيك ، تمتلئ نفسك أفهاماً روحانية ، ويبتهج ضميرك كل وقت بأفكار إلهية ، التى هى : الهمّ بعظمة الطبع الإلهى ، الهذيذ بالثالوث المقدس ، تذكار دائم لاينقطع بعشق محبة المسيح ونور مجده الإلهى الساكن فيه فى السماء ، الهذيذ برتب الملائكة المجدة ، ذكر الفردوس وأرواح الصديقين الذين كملوا ، استعلان ربنا من السماء ، صعود القديسين إلى السماء ، وأشياء كثيرة لايسهل علينا كتابتها ولا النطق بها . فبهذه الأفهام الروحانية يتحرك عقل المتوحد كل وقت بتنعم لاينطق به ، ويأخذ هذه المكافأة بعد مدة جهاده ، كعربون ههنا ، عوض كثرة

تلك الأفكار الردية الشيطانية التى كان يتضايق بها أولاً فى القتال .

(٥٣) والآن ، يا أخى ، إن كنت مشتاقاً لهذه (الأفهام الروحانية) ، ولنقاوة القلب التى بها ينظر الإنسان الله ، أعدَّ نفسك للجهاد مع الآلام والشياطين ، ولا تضجر إذا ما ضُربت ونالتك الجراح فى وجهك كل مدة مجاهدتك ، ولا تعطى قفاً وتهرب من قلايتك مثل خصم مغلوب ، بل انتظر بصبرٍ وبرجاء حقيقى للغلبة التى يعطيك إياها ربنا فى السكون بعد مدة جهادك ، وكثرة الراحة والفرح التى تحظى بها . ولا تكن كالجهال البُله المتحلين ، الذين عندما يكونون غالبين ومنتصرين وفرحين ونيِّرين ، يجلسون فى السكون والحبس ، وعندما يتضايقون وينجرحون ويُغلبون ويحزنون ويسقطون ويُظلمون ، يتركون السكون ويخرجون ! بل أنت اصبر على جميع ما يحدث لك كل أيام مدة جهادك ، إذ فى وقتٍ تضغط أنت الشياطين ، وفى وقت يضغطونك ، فى وقت تسقطهم وفى وقت يسقطونك ، حتى ينظر الله صبرك ويعطيك غلبة على أعدائك ويتوجك بمعرفة الروح .

(٥٤) الجهاد مقابل الأفكار الردية فى السكون ، يكون

بهذا النوع ، من حيث أن يبدأ المتوحد بسيرة العقل ، وبالحرب مع الآلام مدة من السنين كثيرة أو قليلة ، فكل واحد على قدر حرصه ونشاطه وعمله ، يوماً بعد يوم وزماناً بعد زمان ، كلما يتقدم إلى قدام ، تكثر عليه الحروب إلى أن يبلغ نقاوة القلب . وقبل مدة من وصوله إلى النقاوة تشتد عليه الحروب أكثر من الأول وأصعب من العادة . فإن تجلد المتوحد وصبر في السكون دون أن يرتخي أو يمل ، حينئذ يبدأ أن يجد الراحة قليلاً قليلاً ، ويُعان من النعمة دائماً ، وفي كل وقت تدنو منه الشياطين وتقاتل معه بمجانباتها النجسة ، فحالما يدعو سيدنا لكي يعينه ، يُطردون من أمامه سريعاً وعاجلاً بفعل الملاك القدوس اللازق به ، وذلك بالغمز الإلهي ، ويبقى عقله في هدوء وسلام ، إن خدم مزامير أو صلاة ، أو قرأ في الكتب ، أو اهتم بالله وبخيراته . وبعد مدة قليلة لا يُسمح للشياطين أن تدنو منه بمجاذباتها كالأول ، ماخلا بالقتال الظاهر الذي يكون باللمس والنظر ، لأجل عدم التألم الذي اقتناه . لأن عدم التألم - كما قال الأب إشعياء - هو غير قابل للقتال ، فقد أخذ إكليله واستراح من الهم والعناء . وعدم التألم هذا الذي يعنيه الآباء ، ليس هو ذلك التام الكامل الذي يكون بعد القيامة ، بل هم يعنون صحة

النفس من مرض الآلام وسقمها فيها . وهذا إنما استفدناه من الكتب المقدسة ، ومن أفواه أناس قديسين كاملين وإلهيين . ليؤهلنا الرب بكثرة رحمته أن نسير فى إثرهم ، ولنكمل متلهم فى محبة الله آمين .

الميمر السادس

فى ترتيب الرهبنة الحقيقية وكيفية العمل بها

(١) قال مار اسحق : مخافة الله تتقدم محبة الله. فالذى يعمل بالوصايا لأجل محبة الله ، يعطى له أولاً خوف الله ، وبه يكمل كل وصايا الله بكلفة وصعوبة. لأنه يقاتل الخطية التى تقاوم الوصايا . وبجهاده مع معونة الله يقهر الخطايا بخوف الله ، بحزن ورعب ، لأنه يخاف من الانغلاب والسقوط . ومع هذا ينتظر الوصول إلى فرح محبة الله ، التى من أجلها يعمل كل جهاد ، إذا استمر كل الأيام فى ترك الشر والبعد من كل خطية.

(٢) العمل الذى يصل به الإنسان لكمال خوف الله ، هو أن لا يخطئ خطية كبيرة أو صغيرة ، حتى التى لا تكون هناك خطية أصغر منها ، إلا ويسرع بالتوبة عنها. وبهذا تكمل فيه مخافة الله ، التى هى البعد من جميع الخطايا ، فيعطى له العمل الثانى الذى هو كمال كل بر وكل فضيلة ، لأن به يحصل الإنسان بالحقيقة على محبة الله ، ويقتنى عدم الأوجاع وينعم بلذة وحلاوة نظر الله .

(٣) فلا يمكن للإنسان إذاً أن يصل إلى كمال مخافة الله إلا بترك جميع الشرور، وقطع كل خطية. وبتكميله عمل كل بر يبلغ إلى محبة الله بنعمة الروح القدس. ونستطيع ذلك بثلاثة أعمال: العمل الأول هو مداومة قراءة الكتب لكي منها نتخشع دائماً ونخاف الله ونعرف وصاياه. والثاني هو العمل بوصايا الله والتحفظ بها. والعمل الثالث هو أن ننقي قلوبنا، بصلاة دائمة بلا فتور، من كل فكر يضاد خوف الله ومحبته. فإذا لازمنا هذه الثلاث فضائل سهلت علينا وصايا الله، وكملت فينا محبته.

وأيضاً للقديس مار إسحق

(٤) لا يستطيع الإنسان أن يكون بمفاوضة الله ومفاوضة الناس، ولا أن يكون قريباً من أهله الجسدانيين ويقدر أن يدنو لشيء من الروحانيات، لذا فالغربة توافقنا كثيراً. ألا تعلم، يا أخي، أن حياتنا تنقرض ساعة بساعة، ويوماً بيوم، وحتى ولو أننا كل أيام حياتنا نجتهد أن نرد يوماً واحداً من الذي مضى فما نستطيع. فخسارة عظيمة هي لنا إذا نحن تغافلنا عن يوم واحد لكي يجوز بلا ثمر تعبيدنا وأعمالنا، فنتهاون من تقديم الصلوات مع التضرع أمام

الله . لأن هذه كلها مرسومة ومكتوبة قدام الله ، وبها يُمدح الإنسان أمام النعمة ، حيث تأتى أوقاته وهى موسوقة بأعماله الصالحة .

(٥) فلهذا يا إخوتى ، لاتتهاونوا فى وقت واحد من أوقاتنا دون أن نقدم فيه أثمار التوبة . ينبغى لنا جداً الجلوس وحدنا لكى نبكى وننوح على أيامنا التى جازت بالهلاك فارغة ، واضمحلت ، وليس ينفعنا وقت الموت أحدٌ ، ولا إخوة ولا أصدقاء . السعيد حقاً هو الذى يتفكر فى هذا ، ويجمع أفكاره إلى ذاته وينقبض من الطياشة الباطلة ، ولايتخلف وقتاً واحداً عن الصلاة والتوبة . أما أنا فلو أن جميع الخلائق يبكون على لأجل خطاياى ، لما كان ذلك يكفى .

(٦) اعلم يا أخى ، أنه ليس لكثرة الأعمال يعطى الله الأجر ، بل لشوق الإرادة والبشاشة المفرزة ، كمثل الصبيان الذين يسرعون إلى الطاعة ، واتضاعهم هو فخر أنفسهم . فالذى يريد أن يقيم كلمته ، ولو أنها حق ، هذا هو قد مرض مرضاً شيطانياً ، والذى ينوح على ذاته ينجو من النار . لقد أعطى ربنا الطوبى للطاعة ، لأن المطيع هو الذى يتنعم أولاً بالطوبى . والويل للمقاوم والمحارن ، لأنه يغتذى من مرارة نفسه كل حين .

(٧) كن (فى كل حين) مبكتاً لذاتك ، واضمر عن نفسك أنك خالئ ، وقل : ليس على الأرض من هو أعظم خطية منى . داوم على السهر الكثير ، وفكر فى العذاب الأبدى. الاتضاع هو مهلك لجميع الآلام ، والذين يقتنونه ينجحون فى كل شئ ، ويغلبون كل أمر . الطهارة والصوم والصلاة والسهر والاتضاع وندامة النفس ، هذه كلها فوق الطبيعة ، وطوبى للمتوحد الذى عمله دائماً بها ، وعقله مضبوط بها .

(٨) فى فضيلتين جمع الآباء القداسة كلها ، وهما : التواضع والنوح . فلنتفرس فى ذواتنا (إن كنا فى الرتبة الجسدانية مع المبتدئين ، أم مع الوسطانيين ، أم مع الكاملين ، ونسرع لكى ندرك ، ولا ننسى ونتغافل لئلا نخسر .

(٩) إذا ما أُهلت النفس لغفران الخطايا ، حَلَّت فى النور الإلهى . فضيلة واحدة ، أو حسنة واحدة تعمل بإفراز ، تقطع خطايا كثيرة . والشر ليس هو شيئاً إلا عدم الفضيلة فقط . النصرانى الحقيقى له فى كل يوم حرب مع ذاته ، لأن كل من قاتل مع نفسه وغلبها ، ليس له بعد قتال مع أحد . والذى دان نفسه لا تبقى عليه دينونة ، ولا أحد من الناس يقدر أن يدينه . لأن

الذى قد عرف عيوب نفسه ، لا يتقزز من عيوب الآخرين. والذى لا يعمل شراً مع أحد من الناس هو بار. والذى يعرف دينونة الله ، هو يدين نفسه ولا يدين أحداً غيره . والذى أعماله ردية لا يقدر أن يُعلّم آخرين أعمالاً صالحة . فينبغى لنا أن نحب الله من كل أنفسنا ومن كل قوتنا ، ونحب قريبنا كنفسنا ، ولا نكافئ شراً عوض شر .

(١٠) الذى يداوم ترتيل المزامير بالروح بلا طياشة ، يمتلئ من الروح القدس . أما الذى باللسان فقط يصلى ويزمر دائماً ليلاً ونهاراً ، فهو بارٌ ، وبعد ذلك يصير روحانياً . لأنه إذا داوم على هذا العمل الظاهر ليلاً ونهاراً مدة من الزمان ، بصوم كثير وتزمير باللسان وصلاة ونسك وأعمال صعبة ، فإن نفسه تمتلئ من ذكر الله ، ويخاف ويرتعب من الدينونة . ويحسب كل الناس أخير منه ، وإذا نظر أعمال الناس . ورأى إما زانياً أو فاسقاً أو ظالماً ، فإنه يعتبرهم أخير منه ، وذلك من ضمير قلبه الخفى وليس بالكلام الظاهر . بل إنه يتقدم إليهم ويسجد قدامهم ، ويتضرع قائلاً : صلوا علىّ فإنى خاطئ ، وقد أذنبت كثيراً قدام الله ، ولم أوفِ عن ذنب واحد . فعندما يبلغ الإنسان إلى هذه وأكثر منها ، حينئذ يبلغ أن يزمر قدام الله بترتيل الروحانيين .

(١١) إن الله بالسكوت وبالصمت يُصلّى قدامه بذلك الترتيل الموافق له . وإن كان أحد يسكت عن تزمير اللسان ، وما قد وصل بعد ولم يعرف أن يزمر بالعقل والروح ، فهو بطال ، ويمتلئ من الأفكار الردية ، لأنه سكت بالظاهر ، وهو في الخفاء لا يعرف أن يزمر من داخل ، ذلك لأن لسان إنسانه الجواني لم ينبسط (بعد) لكي يرتل ويلغلغ (كالطفل) خفية .

(١٢) إن الصلاة التي يشير إليها الآباء ليست هي بالكلام فقط ، ولا بالكلام تتعلمها ، لأنك لست قدام إنسان تصلي ، بل قدام الذي هو روح أنت ترسل حركات صلواتك . لأن الله هو روح ، فلهذا ينبغي أن تصلي أمامه بالروح . (والصلاة بالروح) لا تطلب موضع الذي يصلي ، ولا نطق اللسان ، لأن الصلاة الكاملة لا تطلب موضعاً . هذه الصلاة الروحانية هي داخلة عن اللسان ، وعميقة عن التزمير ، وإذا ما أراد الإنسان أن يصلي بها يغطس ويتداخل عن الكلام واللفظ ، وفي بلد الملائكة يقوم ، كربون ، وبغير كلام يقدس مثلهم . فإن سكت عن هذه الصلاة ، وبدأ بصلاة اللسان ، خرج عن بلد الملائكة ، ومن التشبه القليل بهم . فإن كنت ، أيها الأخ ، ما بلغت لهؤلاء ، وبذلك مازال بعيداً منهم ، فأثبت الآن في

العمل البرانى ، وصلِّ وزمِّر بالصوت واللسان قدام الله بخوف وحب ، حتى تصل إلى المحبة .

(١٣) خَفْ من الله بالعدل لكى تؤهل أن تحبه الحب الطبيعى الذى أعطيناه بتجديدنا . ولا تكن كمن يتلو كلام الصلاة خارجياً فقط ، بل جاهد واعتنِ أن تكون أنت ذاتك كلام الصلاة . لأن التلاوة ليس فيها نفع ، إلا أن يتجسد الكلام بك ويصير عملاً ، وتبقى فى العالم إنسان الله . لأن الضمير إذا ارتبط بالقراءة والصلاة ، فإنه يتقوى ولا يقبل زرع أفكار الشرور ، ويصير فوق كل فخاخ الشيطان . لأن حرارة الصلاة والهذيذ يحرقان الآلام والأفكار كما بنارٍ ، بالرجاء بالله . فهذا التدبير (أى ربط القراءة بالصلاة) يُقنى للراهب أجنحة ، ويبلغ العقل الروحانى الذى به يخدم الروحانيون .

(١٤) وكما أن الذين آمنوا بالمسيح عندما ظهر فى العالم هم أولاً أخذوا طِبَاً حقيقياً لأنفسهم وأجسادهم ، هكذا أيضاً الذين يحفظون وصاياه ، عندما يظهر فى ذاك العالم ، ينالون مجداً وكرامة . وبقياس ما ننظر الطفل الطبيعى ، هكذا بالمثل أيضاً انظر فى الطفل الروحانى . فمثلما هو ساكت لسان الطفل الذى لم يعرف

الكلام بعد . ولسانه موضوع فى فمه وليس له حركة الكلمة، هكذا أيضاً لسان العقل هو صامت من كل كلام ومن كل اهتمام ، وهو موضوع ومُعدّ فقط أن يتعلم تلفلغ وهجاية الكلام الروحانى .

٥٥ ثُمَّ سكوت اللسان ، وثُمَّ سكوت جميع الجسد، وهناك سكوت النفس ، وسكوت العقل ، وسكوت الروح. صمت اللسان هو إذا لم يتحرك لكلمة ردية . صمت كل الجسد هو إذا ما بطلت جميع حواسه . صمت النفس هو إذا لم تنبع فيها الأفكار المرذولة . صمت العقل هو إذا لم يهدس بمعرفة وحكمة مخسرة . وصمت الروح هو إذا ما هدأ العقل حتى ومن الحركات الروحانية التى للكائنات ، وتختلج كل حركاته بالأزلية فقط ، بدهش السكوت عليها . هذه هى الدرجات والمقادير فى الكلام والصمت . أما أنت فما بلغت إليها الآن ، ولأن بلدك بعيد منها ، داوم صلاة اللسان ورتل قدام الله بالصوت.

وأيضاً للقديس مار اسحق
ما هو المتوحد، وما عمل سيرته

(١٦) المتوحد هو إنسان قد ترك العالم وكل مجده وغناه وبهجه، وأخذه وعطاءه، وبلده وأقاربه، وانتقل إلى المجامع والأديرة، أو الجبال والبراري، يجلس في السكون، ويعمل بيديه ويقوت نفسه، أو تعطى له صدقة من المؤمنين حسب عوزه فقط، ويعبد الله ليلاً ونهاراً.

(١٧) أما عمل المتوحد، فهو الصوم من العشاء إلى العشاء، وسهر نصف الليل، وصلوات لا تنقطع ليلاً ونهاراً، وضرب المطانيات والسجود، وخدمة المزامير وقراءة في كتب الآباء. المسكنة والتجرد والبعد من كل شره ورغبة، والنسك عن كل شئ ما خلا الخبز والملح والطبيخ السانج غير الدسم. الرقاد على الأرض إلى وقت الشيخوخة والمرض والضعف. ثبات داخل القلاية في الدير، ومن غير ضرورة أكيدة لا يخرج منها إلا إن كان للصلاة، أو لتناول الأسرار في يوم الأحد، أو لأمر ضروري لأجل المجمع. البكاء والنحيب والتنهد ولباس الشعر. الرحمة ومحبة الغرباء وغسل أرجلهم. الطاعة لسيدنا بحفظ وصاياه، وللآباء القديسين وكتبهم. التواضع في كل شئ واحتقار الذات والازدراء

بنفسه . حب لسيدنا بالأعمال ، ولأهل تدبير سيرته، ويكونون عنده كمثل الملائكة . السكون والصمت وأن يكون غير محسوب عند نفسه . الامتناع عن شرب الخمر ماخلا لأجل مرض أوضعف ما . أوجب القريب ، وهذا إذا ما عرض إلى ثلاثة أقداح لاغير . ذكر الموت والدينونة المزعة. تكميل سبعة أوقات الصلاة . الطاعة والخضوع للرؤساء والمعلم . خدمة الضعفاء وعمل اليدين . حفظ الحواس والعفة والطهارة . الاحتراس من لمياشة الأفكار. الفرح بالروح ، والاحتمال والصبر وعدم الغضب، ومسامحة كل من يضره ويحزنه . التعري من الآلام ومن كل شيء . الخوف قدام منبر المسيح ، والهذيذ في الصلوات بالقلب ، وبسط اليدين إلى السماء . وباختصار النسك والتوبة ومحبة الأعمال ، مع بغضة النفس والجسد إلى الموت .

(١٨) فهذه الأشياء تنبغي للمتوحدين الذين خرجوا من العالم إلى الوحدة . هذا هو المتوحد ، وهذه هي سيرته . وكل راهب لا يعمل هذه في ذاته حسب دعوته وحسب إسكيمه بكل مقدرته ، مثلما أمر سيدنا والآباء أن يحفظ ويعمل ، بل تهاون وصنع أمراً بإهمال وكسل، فهو لا يؤهل للكمال ، وهو يسير في رتبة ومنزلة العلمانيين. طوبى للذين يحفظون ويعملون . لأن سيدنا إنما أعطى

الطوبى للعمّالين ، وليس للسامعين والقارئين الذين لا يعملون. لهذا ينبغي ألا نفتخر بالاسم ، بل نجتهد في الأعمال؛ لأن العمل هو الذي يبرر ، ولو كان بلا شكل أو إسكيم أو اسم .

في معاني سيرة السكوت

(١٩) فلنحترص أن نقتني بالسكون سكوناً ، أعني أننا بسكوت الجسد نمسك سكون النفس . والجحود بالنفس الذي قال عنه المسيح : « أن نرفض كل شيء ونتبعه » ، هو أن يكون قلبنا في السكون . فإن لم يداوم المتوحد على هذا (الحرص) في قلايته ، يكون كالذي يبني ويزين بالشمال من ناحية ، وهو من ناحية أخرى يهدم باليمين ويعد خراباً لما بناه . لأنه يحترس من الأمام لئلا يُطعن ويُجرح ، بينما هو يُسلب من ورائه ولا يحس . ومثلما يلوم أنبا إشعياء جهالتنا وعدم معرفتنا ، إذ نكون هادئين في القلاية (بالجسد فقط) ، بينما إنساننا الداخل يطوف في النجاسة . أعني أن الإنسان يقاسي الأحزان والضيقات داخل السكون ، وينام على الأرض ، ويصلي ، ويحمل أحزاناً كثيرة من أجل المسيح ، وليس بفرح ومحبة . نحتمل الضيقات التي تلاقينا في السكون ، ونحفظ الوصايا بالظاهر ، ونحن في الخفاء خاضعين

للآلام، وبالأفكار الردية تفسد الأعمال الصالحة .

(٢٠) ثلاثة أبواب مفتوحة ، إذا أغلقناها وأصبحت تحت سلطاننا ، فإننا نجد الملك المسيح داخل منهـا ، وهى : باب القلاية . وباب الحواس ، وباب القلب الجوّانى. ولانقدر أن نغلق الباب الأوسط (أى باب الحواس) إن لم نغلق البرّانى (أى باب القلاية) . ولا يثبت الجوّانى (أى باب القلب) بحفظٍ حقيقى . إن لم نحترس فى الذى هو خارج منه (أى الحواس) . لأن هذه الثلاثة مرتبطة بعضها ببعض ، ولا يمكن غلق الجوّانى بدون الاحتراس باللذين هما خارج منه ، ولا هذان الخارجيان منه يكون فى العقل قوة للتحفظ بهما إن لم يحترس بحفظ الجوّانى ، لأنه به يكمل حفظهما . وهو المحتفظ بهما فى الحقيقة. ولهذا إن لم يحفظ الحارس باب الجوّانى (أى باب القلب). فاللذان هما خارج منه (أى باب الحواس وباب القلاية) يثيران عليه اضطراباً وسجساً كل وقت . ولأن الملك يسكن فى البلاط الذى داخله . فإن كان الذهن المتيقظ يحرس أبوابه بغير فتور ، فهو يأخذ من الملك سلطاناً لأجل مداومته على بابه ، ويكون مخوفاً ذا هيبة ورعب على جميع من يحسدونه ـ الذين هم من خارج ـ لأجل تداخله مع الملك المسيح ، وإذا ما نظروه أو سمعوا صوته هربوا واختفوا .

(٢١) ويشهد على كلامى هذا ، ذلك الشيخ القديس الذى قال : « يوجد من يجلس فى القلاية مائة سنة ، ولا يعرف كيف ينبغى الجلوس فيها ». أعنى الذى لا يغلق باب القلب الجوانى ، الذى يسكن المسيح الملك داخله ، بينما هو يحارب لكى يغلق البابين الخارجيين بتعب كثير وعناء .

(٢٢) وأما نحن فإننا كالحكماء العارفين بالطريق التى تقطع الدورات الكثيرة فى الجبال ، نحترس بجلوسنا داخل القلاية أن نغلق الباب الذى يحل داخله المسيح ، وإذا ما أغلقناه جيداً ، ندنو بعد ذلك للمفاوضة معه . فإنا كنا نفتحه قدام كل أحد من كثرة الداخلين والخارجين ، فلا الملك يكون له وقت ليدخل ، ولا نحن نجد فسحة للكلام معه . لأنه ما دامت هذه الأبواب لم تغلق من عارف الحق ، فلا يكون للقلب هدوء ، لا من أحد الأفكار ولا من أحد الآلام ، لأن العقل النالق لا يقدر أن يبطل .

(٢٣) فإن تجلد المتوحد داخل سكون القلاية بالغرض الذى ذكرناه ، وكان مُعتنياً بهذين الأمرين بإفراز وحكمة ، اللذين هما : تعب الجسد ، والاتضاع ومحقرة الذات فى كل وقت ، لا يمكث كثيراً إلا ويوجب

له سلطان من العلاء ، لكى بغير تعب - داخلاً وخارجاً - يحفظ كنزه بغير انسلاب .

(٢٤) ليس فقط الآلام هى التى تعوق الذين يقاتلون حتى الدم داخل السكون ، بل وأيضاً الأفكار الساذجة التى مثل خفافيش الليل تلزق أظفارها فى سقف بيت العقل ، ولو أنه ينظفها كثيراً بقوة ، فهى لا تمضى من أجل ما تقدم لها (أى بسبب سلطانها السابق) . أما الآلام فيدفعها المتوحد عنه بواسطة الفضيلة ، أعنى بالعمل والاتضاع كما قلنا . وأما الأفكار الساذجة ، فيدفعها عنه بتاورية الروح التى تظهر له فى الصلاة ، أى بواسطة الراحة الذى ذكرنا أنها تتوجب له بسلطة داخلاً وخارجاً . وهذه الأشياء تحصل للذى تعب وألحاح بغرض مستقيم ، واتضع وخضع فى وقت المجمع ، إذا لم يكن له غرض آخر ماخلا النظر الدائم إلى المسيح ، وهو يصلى أن تكون جميع تصرفاته حسب إرادته .

(٢٥) لأن كل من يجلس فى القلاية ، وهو لم يغلق بابه جيداً ، فإنه يتقلى بداخلها كمن هو بالجحيم ، ولا يكون لفكره راحة . وإذا ما خرج من قلايته لا يقدر أن يمسك ذاته لا بالحواس ولا بالحركات الداخلة ، ويبقى مثل حجر نجس فى أسواق المدينة قدام كل أحد . لأنه فى الأيام

التى كان ينبغى له أن يكرّم وينيح كل أحد، كان منتقماً قاسياً وطالباً كرامات فى غير وقتها، أو أنه كان يخدم ويكرم وينيح الآخرين لأجل غيرة ما، وليس بغرض وقصد مستقيم ومحبة حارة.

(٢٦) كل من فى أيام عبوديته - أعنى لجماعة المجمع - مشى باستقامة من غير تمادون أو إهمال، وتأمل بفكره بغير انقسام بهذيذ الأمور الصالحة، وهو يأمل بشوق وفرح قلب ويفكر بماذا وكيف يزيد على تجارته؟ فكلما تتواتر عليه التجارب والصعوبات والأشياء المحزنة وقت جلوسه فى السكون، فهى تضع فى قلبه رجاءً وعزاءً، حتى لو ظن أنها مضغطة، فإن حملها يكون خفيفاً عليه، ويصبر عليها بفرح، هذا إذا لم يتخلف عن غرض قصده الأول ويشتبك بشئ آخر غريب عن طريقه. وحتى إذا ما خرج من قلايته، فتلك الراحة التى له داخل القلاية تُكتب على عينيه وعلى فمه وعلى يديه ورجليه، وباختصار فإنها تملك على نفسه من داخل وعلى جسده من خارج، فلا ينعصر فكره بشئ من أنواع عمل الفضيلة، بل يكون مملوءًا فرحاً ورجاءً بالله، وإيماناً فى جميع ما يصادفه، ويتاجر (أى يربح) الحياة بحكمته من الأشياء التى يُظن أنها مخسرة. ولائث الرب جاد عليه بهذا،

وأخذ منه سلطاناً، فما تستطيع العوارض المضادة المناسبة للحق أن تسلبه حريته، لا من داخل ولا من خارج. وهو يعترف كل يوم بقلب منسحق متضع، وبحركات متطأطئة لله، مُبرِّرة له، ويقول: "أبي الذي أعطاني هو أعظم من الكل، ولا يقدر أحد أن يخطف من يد أبي شيئاً". فلو يكون له في فكره أبداً حركة تهدم بشيء كأنه من أعماله واستقامة قصده وجد مثل هذا السكون، بل إن الرب هو الذي أعطاه هذا. حتى أحه ليس فقط إذا كان جالساً داخل قلايته، بل وإذا كان خارجها فهو يقهر الآلام البرانية التي بالحواس، وذلك بتوجيب (أي بفعل) النعمة، وبواسطة عمله الخفي الذي من الداخل، مثلما علم الأنبا أرسانيوس.

(٩٧) فالسكون الحقيقي هو حفظ القلب الذي يولد من الطاعة والاتضاع، ومن سكون الجسد، ومن توجيب النعمة. ولما وجد آباؤنا القدماء هذا، فمنهم مَن كان يطوف في المدن والشوارع، وأظهروا في نفوسهم سيرة كاملة بالجسد مع حفظ حقيقي بالعقل، الشيء الذي إنما يُعمل في البراري القفرة والمواضع غير المسكونة. وقد ضبطوا (السكون) في سائر أنواع وأفرازات أعمالهم، ووضعوا هذا العمل كالإماج والعلم تجاههم، وصوّبوا سيرتهم نحوه، واقتنوا قلاية يدخلونها كل وقت.

وبيت ملجأ يستترون فيه من المنافق الشرير، هي (أي القلاية) معرفة المسيح المقدسة، وهم على الدوام قائمون بالسكون داخلاً وخارجاً، ويتشبهون بنور وجه المسيح، الذي له المجد وعلينا رحمته إلى الأبد آمين.

+ + +
+ +
+

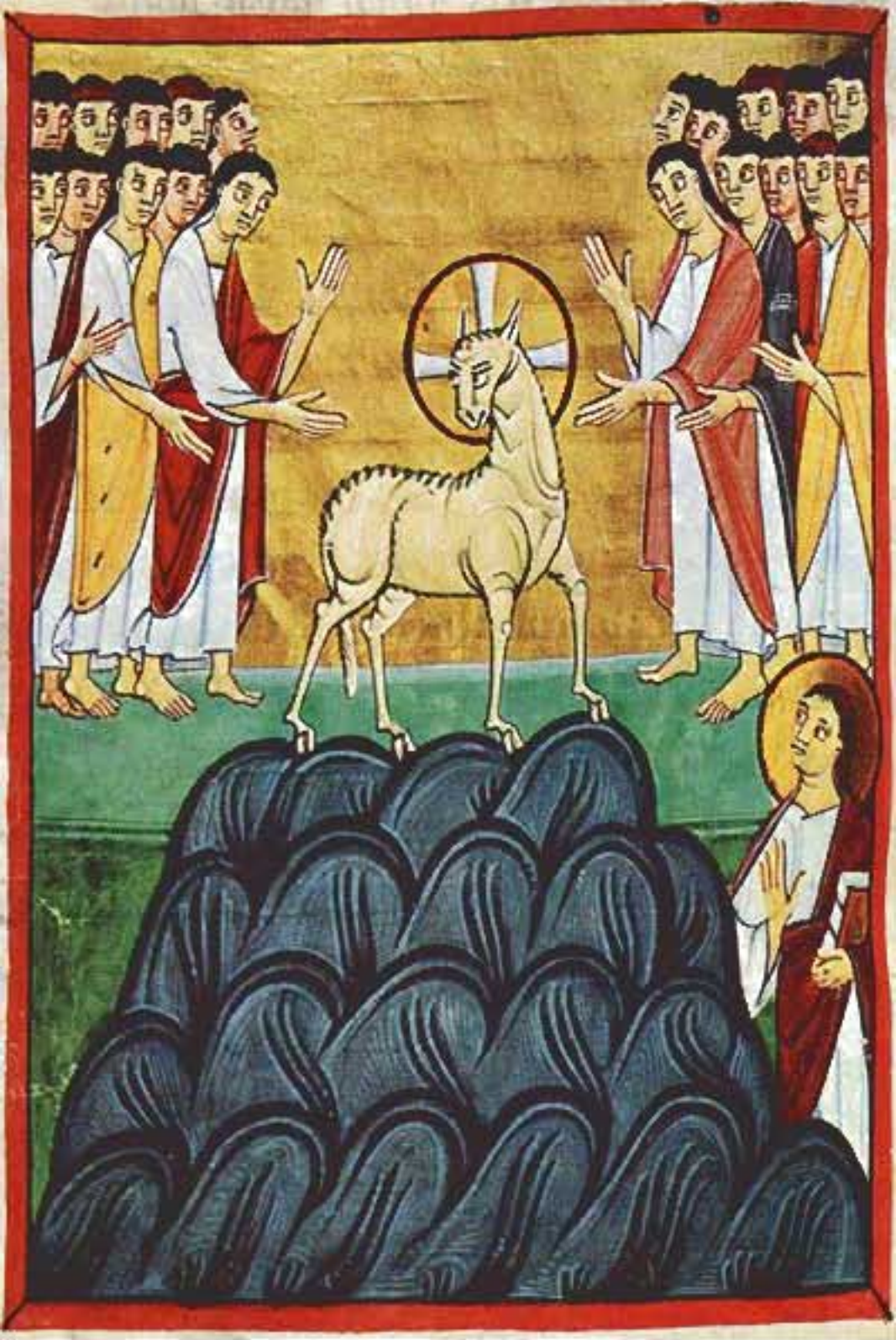

الميمر السابع

فصل يعرّف بإيضاح ويفسر بإفصاح ،
ماهى هيئة الصلاة الطاهرة التى بلاطياشة .

(١) ينبغى للإنسان الحكيم إذا ماعزم فى قلبه أن يسعى فى طلب شئ ما ضرورى ، وأحب تحصيل ذلك الشئ واشتهى أن يقتنيه ، ينبغى له ألا يعتمد على السماع عنه من خارج ، ولا يسعى فى الحصول عليه بغير فحص وتفتيش ، ومن غير أن يكون قد عرف أولاً ماهو هذا الشئ ؟ وماهى هيئته ؟ لئلا إذا ماوقع فى يده بالفعل ، فلعدم خبرته به يضيعه بسهولة . ولهذا ينبغى له أن يعتنى بمعرفة ذلك الشئ وماهيته معرفة ثاقبة لاضلالة فيها . فمتى عرف ماهو ، وماهى صفته ؟ سيعرف كيف يهتم باقتنائه . كما ويجب أن يعرف بتدقيق ما الذى يسعى فى طلبه ، وماهو الذى يقصده ويترجاه ؟ وذلك لئلا يطلبه بأمور غير مستطاعة ، وينتظر تحقيقه كأنه مستطاع .

(٢) اعلم ، أيها الأخ المتتلمذ للحق ، أن طهارة الصلاة وجمع العقل فيها ، هو هذيذ الفضيلة الحقيقى

الذى يكون لنا باهتمام فى وقت الصلاة . وكما أن طهارة القلب التى من أجلها يحذر الآباء ، ليس (المقصود منها) أن يكون الإنسان بلا فكر ولا هذيذ ولا حركة تماماً ، بل إن نقاوة القلب (فى الحقيقة) هى أن يكون القلب طاهراً من الشرور ، يرى كل شئ حسناً ، وينظر ويفكر بضمير الله . هكذا أيضاً هى الصلاة الطاهرة التى بلا لهياشة . فهى لا تعنى أن يكون العقل خالياً تماماً من كل فكر أو رؤيه فى شئ ما . بل أنه لا يطيش فى الأشياء الباطلة وقت الصلاة . وأيضاً ليس أنه إذا لهاش العقل فى معانى الصلاح والأمور الجيدة ، يكون حينئذ قد بَعُدَ عن طهارة الصلاة ، بل إنه فى وقت الصلاة يهتم بأشياء واجبة لائقة بضمير مُرْضٍ لله . ولا يُطلب من الإنسان أن لا تجوز فيه تذكارات (باطلة) عندما يصلى ، بل أن لا يلتفت إليها وأن لا يتفطن ويطيش فيها . فهناك لهياشة رديئة ، وهناك أيضاً لهياشة جيدة .

(٣) وأنت أيها الأخ ، لا تطمع أن لا يطيش الضمير لأن هذا غير مستطاع ، بل (اجتهد) أن تكون لهياشته فى صلاح ، لأن الصلاة الطاهرة إنما هى أيضاً لهياشة فى شئ ما حسن وصالح ؛ لأنها ذِكرٌ ولطلبٌ لشئ صالح ضرورى . واللهياشة الردية هى أن يطيش الإنسان بأفكار باطلة أو بهذيذ ما مخطئ وآثم ، ويلحظ بهدس

(أى براءى) أفكاراً سمجة وقت صلاته قدام الله .

(٤) أما الطياشة الجيدة فهى أن يهدس الضمير فى كل مدة صلاته بالله وبمجده وعظمته ، يلحظ فيها ويطيش بالتذكارات التى من قراءة الكتب وأفهام الألفاظ الإلهية والأقوال المقدسة التى للروح . لأن الذى يجاهد أن يربط فكره بالطياشة فى هذه الأمور ، أو أن العقل هو الذى يهدس بها من تلقاء ذاته فى وقت الصلاة ، جهل" هو أن يعتبر هذه الطياشة غريبة عن طهارة الصلاة . لأن التذكارات النافعة التى (تشبع) من كتب الروح ، والأفهام وتصورات الأمور الإلهية التى تتحرك فى القلب وقت الصلاة ، هى ليست غريبة عن طهارة الصلاة ، ولا مُبطلة لجمع العقل .

(٥) أن يكون الإنسان منقبضاً إلى ذاته ، ويتفرّس بهذيذ طلبته وسؤال صلاته ، هذه هى الصلاة الجيدة ، إن وافقت قصد وصايا سيدنا وغرضها . وهذا النوع من جمع الفكر صالح هو جداً . فإن كان (العقل) ينطلق من هذه (الصلاة) ويمتد للإلهيات أو يهتم بشئ فاضل من أفهام الكتب عن الله ، بما قيل لأجله خاصة ، أو ما قيل لعامة الناس بنوع السياسة والتدبير ، ويوماً بعد يوم تقع فى الفكر مثل هذه الأمور كلياً أو جزئياً ، لكى

منها يتحرك التمجيد لله من عمق القلب، أو الشكر والفرح بعظمته وبارتفاع تحننه ومحبته لنا. فهذا النوع من الطياشة هو أفضل من الصلاة الطاهرة، وهو حد كل (نوع من أنواع) جمع العقل ومحاسن الصلاة.

(٦) وأما أن يكون الضمير خالياً تماماً من كل همّ وفكر، فهذا هو صمت الفكر وليس طهارة الصلاة. أن نصلي بطهارة، هذا شئ، وأن يصمت الفكر من الطياشة والأفهام في كلام الصلاة ويبقى بغير حركة، هذا شئ آخر (يختلف تماماً عنه)، وجاهل" هو مَن يريد أن يجد هذا (أي صمت الفكر) بالجهاد أو بقوة الإرادة، لأن هذه هي موهبة استعلان العقل. وليس في مقدرة الصلاة الطاهرة وإرادة المشيئة سوى هذين النوعين اللذين ذكرناهما، وهما: أن يطيش الفكر بالصلاة أو بهذيذ طلبته، أو بتأوريه الكتب والهمّ الحكيم بالله سيد الكل بفهمٍ واعٍ. فمن يقول أن جمع الفكر هو وجود شئ آخر غير هذا، فهو قد مرض بعدم المعرفة، وبضمير خرافة.

(٧) أما أنت أيها الأخ الحكيم، فلا تطلب من العقل عدم الحركة كالجُهال الذين يخرفون، فهذا الأمر ليس موجوداً للطبيعة (البشرية). بل اعتنِ أنت أن تجد

حركات صالحة فى وقت الصلاة كالحكماء ، التى هى : الهذيذ بأفهام كلام الروح ، والفكر الدقيق (أى الحكيم) الذى يُضمر فى وقت الصلاة مرضاة إرادة خالق الكل . فهذا هو حد كل فضيلة وكل صلاة .

(٨) فإذا ما أخذت قوة من النعمة ، لكى ترتبط بحركاتها هذه على الدوام ، فإنك تصير رجل الله ، وتصبح قريباً للروحانيات ، وتدنو لاقتناء الشئ الذى كنت تشتهيه وأنت لا تعرفه ، أى الإحساس بالله ، ودهش الضمير المنقبض من كل الأشكال ، وصمت الروح الذى قال عنه الآباء . ولطوباك إن أُهلت لهذا الفرح والبهجة العظيمة بسيدنا الذى له المجد ، ولكيملنا فى معرفة أسراره . آمين .

(٩) إن جميع عمل هذه السيرة المتحدة التى هى السكون ، تنحصر فى ثلاث منازل : منزلة البداية ، ومنزلة الوسط ، ومنزلة الكمال .

المنزلة الأولى

(١٠) ويتبعها الخوف والحزن والكآبة بسبب ذكر ما تقدم من الإنسان (من الخطايا) ، وخوف ورعب مما يُوجَب عليه فى الدينونة بالعدل . وهذا النوع الآخر (هو) غرض وقصد المجاذبات والعزاءات المختلفة التى بها يدنو إلى المواهب ، بواسطة الطهارة التى يقتنيها من البكاء والندم . والتائب الحكيم ، بدوام سكونه ونسكه التعب وهذيذه بخطاياه التى تضغطه بالحزن وتؤلمه ، إذ أنه فى العادة يلزق به ههنا بكاء مديد ، إذا ما أكمل هذه المنزلة بالأعمال المتوازنة ، واختلاف أنواع التوبة بمعونة المسيح رجاء حياتنا ، وبدأ يمتد إلى المنزلة الثانية ، ينقلب غرض توبته إلى فرح بغير إرادته ، إلا أنه يحترس ويخاف لئلا تكون ضلالة .

المنزلة الثانية

(١١) وعلامتها أن يبدأ الرجاء يتحرك فى الضمير بواسطة التوبة ، ويبدأ أن يمتزج فيه العزاء قليلاً ، وتتحرك

فيه من وقت لآخر اهتمامات تفعل أفراحاً ، وينظر نفسه أنه يقدر أن يجمع فكره من الطياشة بسهولة . وهذا يكون إذا ما تدخل فى المنزلة بالكمال : أنه يُبدِّل هذيذ العادة بهذيذ آخر ، له زىّ من نوع آخر لا يشبهه ، وأمور أخرى تحل فى العقل ليست لهذه الطبيعة . ويبدأ أن يلاحظ الأفهام السرية المخفية فى المزامير ، وفى القراءة ، وفى بقية الأفعال المحسوسة وتصور تأوريه فلاحة عمله . ويبدأ الفرح يمتزج بعمل سيرته ، إن كان بالصوم أو بألفاظ الخدمة وبقيه أعماله . وحالما يبدأ الصلاة تنقبض الحواس من غير الإرادة ، وتبتدئ الأفكار تجتمع لأنها أحست بجوٍ حَرِىٍّ (أى أفضل) منعالٍ عن المجاهدات والحروب . ويرى أن سفينة فكره تسير بنقاوة ، بواسطة ترتيب الصلاة والفضائل ، وتتقدم إلى الأمام يوماً بعد يوم . هذه الأشياء مع أمور أخرى أعظم منها تلزق بهذه المنزلة الوسطى ، حتى يرتفع الإنسان بموهبة رحمة المسيح إلى تدبير السيرة التى هى أعلى من الطبع (البشرى) .

(٣) لملما أنت فى المنزلة الأولى ، فأكثر من جميع الأشياء ، داوم على خدمة المزامير والتلاوة الكثيرة والقراءة فى الكتب . واقرن بها الجوع الدائم ، لأنه هو الذى يطهر وينقى الجسد بحرارته . لأن الجوع له كفاءة

أكثر من جميع الأعمال أن يمنح غفران الخطايا لأجل صعوباته المُضنِطة ، لأنه هو قوة التوبة . والعلات القديمة التى اعتادت النفس أن تتجاوز بها الشريعة بسماحة ، هى أيضاً تضعف بالجوع .

(٣) وعندما تدنو بالمعونة السماوية لهذه المنزلة الثانية ، فحسب قول الآباء ، ستبدئ أن تحس فى ذاتك أنك قد وصلت إليها من العلامات التى رسمناها آنفاً ، إذ تنظر فى نفسك شيئاً فشيئاً تلك الأمور. عند ذلك أنقِصْ قليلاً من أعمالك الأولى ، ولكن لاتقطع أصول دوامها ، بل استبدل شيئاً منها بشئ آخر. فاثبت فى الصلاة أكثر من المزامير ، ولا يعنى هذا أن تبطل المزامير ، بل أن تعطى موضعاً فسيحة للصلاة أكثر من التلاوة . وفى الخدمة أيضاً تعطى موضعاً وإمكانية للصلاة مع باقى السواعى الأخرى . فمن هنا سوف تنظر الدالة التى تنالها يوماً بعد يوم . وياخذ قلبك قوة . والأفكار والآلام تضعف ، ويفرح ضميرك على الدوام بالسرور ، وينشى (أى يسكر) بالصلاة. وترى نفسك من وقت لآخر أنك قد صرت شيئاً آخر غير ماكنت أولاً ، بسبب الفرح الذى تناله بمعونة النعمة، وتحل عليك قوة إلهية إذا كنت فى السكون والتحفظ.

(١٤) إنه من حيث يبدأ الإنسان بتدبير سيرة الفكر، الذى هو الهذيذ بالإلهيات، وإلى أن يصل إلى تدبير السيرة الروحانية، الذى هو الدهش بالله، فهو أكثر من كل الأعمال مضطر للصلوات بتغصب، التى تكمل بالمطانيات، وأن لا يبطل من الصوم أبداً، وأن يأخذ من الغذاء على قدر ما يقوم به الجسد فى عمل الصلاة هذا. فإذا ما دنى واقترب من سيرة المنزلة الثالثة، وحظى بحدودها، فإنه من ههنا يجد أن الأشياء التى كان يعملها بتغصّب فى هذا الموضع، أصبح الآن ينجذب إليها باضطرار الحلاوة فى كل وقت، ويتخلف عنه التغصب. والذى يجذبه إلى هذا بغير إرادته هو الدهش، حيث يوجد على الدوام - من أجل تنعمه بالأفهام - جاثياً على وجهه، بلا أفكار ولا حواس الصلاة، وبلا طياشة ولا هذيذ. بل يكون له إحساس بما هو هناك. ولا أعنى بذلك عن الدهش الكامل فى طبيعة المسجود له سيد الكل، بل أن العقل يرتفع عن هذه الأمور السفلية، ويبقى فى حسّ الدهش بسياسة تدابير الله المملوّة إفرازات، والعوالم والأجيال. ويقع هذا النفس، وبالأشياء التى تتفعل بها كل يوم وفى كل وقت، إن كان فى الخفاء أو فى الظاهر. لأنه متى تحرك العقل من النعمة فى الأمور

الروحانية ، فلأجل حلاوة المعرفة يتخلف عن الهذيذ والذكر وقتاً كثيراً وهو فى دهش .

(١٥) لقد شبه الآباء القدماء نفس المتوحد بالعين ، لأنها كلما كانت هادئة من كل لمعين السماع والنظر ، يستطيع المتوحد أن ينظر الله وذاته بصفاء وينتشل من هنا مياهاً عذبة ، التى هى أفكار النقاوة (أى نقاوة التجديد المزمع) ، أما إذا اقترب من السماع والنظر ، فهو بسبب الاضطراب الذى تقبله نفسه ، يشبه إنساناً يسير فى الليل وقت انتشار السحب فى الجو ، فلا ينظر أمامه طريقاً ولا سبيلاً ، وبسهولة يتوه ويضل فى بلاد قفرة مؤذية . فإذا ما هدأ مع نفسه يكون كمن تهبُّ له ريح حسنة ، وتجعل الجو بهجاً فوق رأسه ، ويبدأ أن ينير أمامه ، فينظر ذاته ويتميز كيف هو ، وإلى أين ينبغى أن يمضى . وينظر مياه الحياة من بعيد .

(١٦) ولأنت جيلنا الردئ هذا ، يا أخوتى ، لا يساعدنا لكى نجد الهدوء بالتمام والسكوت الحقيقى مثلما كان فى الأجيال الأولى ، فأى موضع نكون فيه ، فلنجلس مع نفوسنا ، ولو كان ليوم واحد ، ليس فى الدير فقط ، بل وفى الطريق وفى أى موضع كان ، ولو لساعة واحدة ،

فقد عبر ذلك الزمان الذى كان يوافق ، ولهذا لا تنتظر العدل و الترتيب ، بل يوماً بيوم نطلب أن نهدأ قليلاً ، ولو تحت سقيفة أو فى خرابة . باختصار ، كل موضع يقع بيدنا السكوت فلنضبطه حسناً بالانقباض إلى نفوسنا ، إن كان يوماً أو اثنين ، لأن الحكماء هكذا يقتنون أنفسهم فى هذه المدة القصيرة من حياتهم . لئلا يدركنا الموت بغتة ، وما نبلغ أملنا . وإن كان ثمة راهب فيه كفاءة لنعمة السكون هذه ، وحظى بها من الله ، ويعترضه أحد من الأساقفة أو رؤساء المجامع ، ليمنعه من السكون ، تكون عليه دينونة ويعطى عنه الجواب قدام المسيح . ولربنا المجد دائماً أبدياً آمين .

كمل بسلام من الرب ما وجدناه فى الجزء الأول لمار اسحق . وبقيته لا توجد إلا فى بلاد السريان . الرب يغفر لنا خطايانا وخطايا الرهبان

آمين .